

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

قسم التاريخ

محاضرات في تاريخ المغرب الإسلامي

(21-668هـ/648-1269م)

مطبوعة دروس موجهة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس تاريخ (ل م د)

مطبوعة مقدمة ضمن متطلبات الترقية لرتبة أستاذ التعليم العالي

إعداد أستاذ المقياس: د. محمد زرقوق

السنة الجامعية 2022-2023

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

قسم التاريخ

محاضرات في تاريخ المغرب الإسلامي

(21-668هـ/648-1269م)

مطبوعة دروس موجهة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس تاريخ (ل م د)

مطبوعة مقدمة ضمن متطلبات الترقية لرتبة أستاذ التعليم العالي

إعداد أستاذ المقياس: د. محمد زرقوق

أعضاء لجنة الخبرة

اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	جامعة الانتساب
نور الدين شعباني	أستاذ التعليم العالي	جامعة خميس مليانة
أحمد جلايلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة أدرار

السنة الجامعية 2022-2023

المحتوى

أولاً : مدخل ص 03

1. الإطار الجغرافي للمغرب ص 03

2. الإطار البشري ص 07

3. أوضاع بلاد المغرب قبل الفتوحات الإسلامية ص 08

ثانياً : الفتوحات الإسلامية ص 12

1. مرحلة الحملات الاستطلاعية (21-49هـ/642-669م) ص 12

● حملة عمرو بن العاص ص 12

● حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ص 12

● حملة معاوية بن حديج ص 14

2. مرحلة الفتح المنظم (50-69هـ/670-688م) ص 15

● فتوحات عقبة بن نافع الأولى ص 15

● فتوحات أبو المهاجر دينار ص 17

● فتوحات عقبة بن نافع الثانية ص 18

● فتوحات زهير بن قيس البلوي ص 19

3. مرحلة الاستقرار واستكمال الفتوحات (69-90هـ/688-709م) ص 21

● فتوحات حسان بن النعمان ص 21

● فتوحات موسى بن نصير ص 23

ثالثاً : عصر الولاة ص 29

1. ثورات الخوارج في بلاد المغرب ص 35

2. عوامل انتشار النشاط الدعائي للخوارج في بلاد المغرب ص 40

3. موقف الخلافة العباسية من ثورات الخوارج في بلاد المغرب ص 52

رابعاً : الدول المستقلة

1. الدولة الرستمية في المغرب الأوسط ص 64
2. الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى ص 76
3. الدولة الأغلبية في افريقية ص 81
4. قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ص 97
5. دولة بني زيري الصنهاجية ص 111
6. الدولة الحمادية ص 122
7. دولة المرابطين ص 127
8. دولة الموحيدين ص 137
- البيبلوغرافيا ص 148

أولاً : مدخل إلى تاريخ وحضارة المغرب الاسلامي.

1. التسمية والإطار الجغرافي :

تعددت المصطلحات التي استخدمها المؤرخون والباحثون للدلالة على بلاد المغرب، وتعددت أيضا مجالات استخدامها وتطورت مدلولاتها من عصر تاريخي إلى آخر، ولم تكن هذه التسميات محل اتفاق بين المؤرخين، مما جعل بعضهم يعتبرها بلادا بدون اسم.¹ فقد أطلق الإغريق واللاتين قديما اسم ليبيا على المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر النيل،² وهي تمتد من غرب مصر إلى البحر الكبير (المحيط الأطلسي).³ أما الفينيقيون الذين حلوا بشمال افريقيا منذ القرن الثاني عشر ق. م. وأسسوا فيها عدة مدن ومراكز تجارية، مثل أوتيكا، وقرطاجة،⁴ فقد أطلقوا على سكان البلاد الأصليين الذين كانوا يسكنون حول مدنهم، اسم أفري (Aphri)، ومن ثم سميت المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي باسم افريكا (افريقية) أي بلاد الأفري.⁵ وربما هم الذين سماهم ابن عبد الحكم بالأفارقة، وقال عنهم أنهم من نسل فارق بن بَيصَر، و"بالأفارقة سميت افريقية"⁶. ولا يوجد اتفاق بين الباحثين عن أصل هذه التسمية، فبينما يرى بعضهم أن كلمة أفري اشتقت من افريكا، يرى آخرون العكس، أي أن كلمة افريكا (افريقية) اشتقت من أفري.⁷ وتكاد المصادر العربية أن تتفق

¹ Gautier E. F., L'Islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Maghreb, Payot, Paris, 1927. p. 7.

² حارث محمد الهادي، التاريخ المغربي القديم، السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د م)، (د ت). ص 21.

³ لقبال موسى، المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981. ص 13.

⁴ غانم محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1979. ص 94.

⁵ مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت.). ص 2.

⁶ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د ت.). ج 1، ص 248.

⁷ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 13؛ حارث محمد الهادي، مرجع سابق، ص 25.

على أن أصل التسمية يعود إلى ملك عربي قدم إلى المنطقة من اليمن، يسمى افريقش بن أبرهة بن الرائش،¹ ومن الباحثين المحدثين من يعتبر أن افريقش شخصية أسطورية لا وجود لها.²

وبعد تهديم الرومان لمدينة قرطاجنة سنة 146 ق. م، واحتلالهم للمنطقة أخذوا عن الفينيقيين هذه التسمية، ولكنهم أطلقوها على المنطقة التي استولوا عليها من القرطاجيين فقط، وحولوها إلى مقاطعة رومانية (Provincia Africa).³ وهي تشمل الأجزاء الشرقية والداخلية من أراضي الجمهورية التونسية الحالية،⁴ أو الثلث الشمالي الشرقي من القطر التونسي، وتمتد من مصب الوادي الكبير (Tusca) قرب طبرقة، إلى جنوب طبة على السرت الصغير أي خليج قابس، وتقدر مساحتها بحوالي خمسة وعشرين ألف كلم متر مربع. وقد عرفت باسم ولاية افريقية الرومانية (Africa Romana)⁵ أو افريقية البروقنصلية (Africa proconsularis).⁶ ولم يشمل هذا المصطلح الممالك التي كانت مستقلة عن الامبراطورية الرومانية، وهي نوميديا (الجزائر الشرقية)، وموريطانيا القيصرية (الجزائر الغربية) وعاصمتها شرشال (Caesarea)، وموريطانيا الطنجية (المغرب الأقصى) وعاصمتها طنجة (Tingi).⁷ غير أن الاستعمار الروماني لم يتوقف عند الحدود الموروثة عن القرطاجيين فقط، بل توسع على حساب هذه الممالك ومناطق أخرى وأخضعها جميعا إلى سلطته، وفي حدود سنة 40 م، كان مصطلح افريقية البروقنصلية يطلق على المنطقة الممتدة من طرابلس في ليبيا إلى ملبلية

¹ ابن الفقيه (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت 340 هـ))، كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996. ص 132؛ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت 346 هـ))، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، ط 5، بيروت، 1983، ج 2، ص 87؛ الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626 هـ))، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008. ج 1، ص 184؛ ابن خلدون (عبد الرحمن (ت 808 هـ))، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983. مج 6، ق 1، ص 26، 176.

² حارش، مرجع سابق، ص 24.

³ المرجع السابق، ص 181.

⁴ مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 2.

⁵ صفر احمد، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959. ج 1، ص 295؛ شنيقي محمد البشير، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146-ق.م/40م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985. ص 55.

⁶ شنيقي محمد البشير، مرجع سابق، ص 79؛ مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 2.

⁷ صفر أحمد، مرجع سابق، ص 292.

في المغرب الأقصى، وقد ظلت هذه الحدود تتغير تبعا للظروف السياسية والعسكرية.¹ وفي العهد البيزنطي اتسع مدلول لفظ افريقية البروقنصلية، فأصبح يشمل كل المنطقة الساحلية الممتدة من برقة إلى المحيط الأطلسي.² ولما وصل المسلمون إلى شمال افريقيا في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، أخذوا عن البيزنطيين كلمة افريقية، وظلوا يطلقونها على كل ما يلي مصر غربا، حيث ذكر أبو عبيد البكري الأندلسي (ت 487هـ/1094م)، أن: "حد افريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا وعرضها من البحر إلى الرمل التي في أول بلاد السودان..."³ ويبدو أن هذه المساحة الشاسعة قد تقلصت فيما بعد، وظهرت تسميات ومصطلحات أخرى أطلقت على المنطقة، إذ أورد ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) في معجمه أن: "حد افريقية طولها من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية وقيل مليانة"⁴. وهذا يدل على أن برقة لم تعد جزءا من افريقية فإما أنها ألحقت بمصر أو أصبحت ولاية قائمة بذاتها. ومع مرور الوقت، تقلص مدلول افريقية، وأصبح المقصود به فحص القيروان، أو المنطقة التي عرفت فيما بعد بالمغرب الأدنى.⁵

وفي الوقت نفسه الذي استخدم فيه المسلمون مصطلح افريقية فإنهم استخدموا مصطلحا آخر انفردوا به بين الشعوب والأمم التي سبقتهم، وهو مصطلح المغرب ولم يكونوا في بداية الأمر يقصدون به بلدا معينا بل أرادوا به المدلول اللغوي، "الغرب خلاف الشرق، وهو المغرب".⁶ فالمشرق عندهم بلاد الصين وخراسان والهند وشبه الجزيرة العربية والعراق، وكل ما وقع إلى الغرب من هذه البلدان يعتبر مغربا بما في ذلك بلاد الشام.⁷ ويبدو أن إطلاق مصطلح المغرب على منطقة شمال افريقيا أو جزء منها يعود إلى القرن الثالث الهجري، فقد ذكر ابن عبد الحكم (ت 257هـ/871م) -وهو أقدم مصدر عن الفتوح- أن معاوية بن حديج خرج إلى المغرب⁸ للفتح

¹ حارث محمد الهادي، مرجع سابق، ص 186؛ صفر احمد، مرجع سابق، ج 1، ص 306.

² مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 2؛ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 14؛ حارث محمد الهادي، مرجع سابق، ص 277-282.

³ البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ))، المسالك والممالك، حققه جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003. ج 2، ص 193.

⁴ الحموي، مصدر سابق، ج 1، ص 184.

⁵ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 14

⁶ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ))، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د.ت). مج 1، ص 637؛ الحموي، مصدر سابق، ج 8، ص 291.

⁷ ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 280 هـ))، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889. ص 18-73.

⁸ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 260؛ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 15.

ولم يقل إلى إفريقية. وعلى منواله سار البلاذري (ت 271هـ) إذ يقول : "لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتى قدم برقة"¹، ويذكر ابن خردادبه (ت 280هـ) أن القيروان "مدينة إفريقية وهي في وسط المغرب وهي في يد ابن الأغلب"²، مما يدل أن مصطلح المغرب أطلق خلال القرن الثالث الهجري على المنطقة الواقعة غرب مصر أو غرب طرابلس.

ويختلف الجغرافيون المسلمون في تحديد الإطار الجغرافي لبلاد المغرب، فعند المقدسي (ت 380 هـ) هي تمتد من برقة إلى السوس الأقصى³، وتتقلص هذه المساحة عند الحموي فهي تمتد من "مدينة مليانة إلى آخر بلاد السوس التي وراءها البحر المحيط وتدخل فيه جزيرة الأندلس"⁴، أما ابن عذارى المراكشي الذي يعتبر من المصادر المتأخرة، فيحدد حدود بلاد المغرب بقوله : "إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب، إلى آخر بلاد المغرب، وحده مدينة سلا"⁵. ولا يمكن سرد كل ما ذكرته المصادر حول حدود بلاد المغرب ولكنها تتفق في معظمها على أن حدودها الشرقية تبدأ عند هضبة برقة وتنتهي عند مدينة سلا المغربية.⁶

والخلاصة أن لفظ المغرب انتهى عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين إلى أن يشمل كل ما يقع غرب مصر حتى المحيط⁷ ثم يقسمونه إلى أجزاء، هي برقة، وطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فالسوس.⁸ ولذلك سنستخدم لفظ المغرب الإسلامي للدلالة على الإقليم الممتد من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي أما مصطلح الغرب الإسلامي فيقصد به : المغرب، الحوض الأوسط والغربي للبحر المتوسط، والأندلس، والصحراء الإفريقية، وغرب إفريقيا الإسلامي.

¹ البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 271هـ))، فتوح البلدان، حققه عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987. ص 314.

² ابن خردادبه، مصدر سابق، ص 87.

³ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1906. ص 216.

⁴ الحموي، مصدر سابق، ج 8، ص 219.

⁵ ابن عذارى المراكشي (ت 695 هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط 2، بيروت، 1980. ج 1، ص 5.

⁶ بن عميرة محمد، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008. ص 29.

⁷ Gautier E. F., op. cit., p. 7.

⁸ مؤنس حسين : مرجع سابق، ص 4.

2. الإطار البشري :

سكن بلاد المغرب قبل الفتوحات الاسلامية ثلاث طوائف هي : الروم والأفارقة والأمازيغ.

- الروم : هم الذين قدموا مع الاحتلال الروماني والبيزنطي، واستوطنوا عدة مناطق من شمال افريقيا، وكانوا يحتكرون السلطة، ويعتنقون المسيحية، وقد اختفوا بعد الفتح الاسلامي.
- الأفارقة أو الأفارق : تسميهم بعض المصادر العربية بعجم افريقية أو الأفارقة الأعاجم¹، هم خليط من الأجناس، يتكون من بقايا الفينيقيين والمستعمرين الرومان، وخدامهم من المزارعين والصناع، وقليل من الأمازيغ الذين دخلوا في طاعة البيزنطيين. قال عنهم ابن عبد الحكم أنهم : "كانوا خدما للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم"². كان الأفارقة يتركزون في المناطق الساحلية القريبة من المدن البيزنطية أو السهول والأراضي الزراعية الخاضعة للبيزنطيين. وكان ولاؤهم غالبا لمن يسيطرون على المنطقة، وخضعوا حينما من الدهر للبيزنطيين وعنهم أخذوا المسيحية، ومظاهر الحياة الرومانية، وقد اعتنق بعضهم الإسلام.³
- الأمازيغ : وهم السكان الأصليون للبلاد وأقدم وجودا من الروم والأفارقة، وقد اشتهروا في المصادر والمراجع باسمين هما :

1 - البربر : وهي كلمة لا تعني جنسا معينا، بل هو لفظ أطلقه اليونان على كل أجنبي عنهم لا يتكلم

الإغريقية، وأطلقوه أيضا على سكان إيطاليا، فقد كانت تسمى عندهم "برباريا"⁴ واتخذ الإيطاليون هذه التسمية فأطلقوا اسم البربري على كل من ليس يونانيا ولا إيطاليا، ولم يكن خاضعا لسلطانهم...⁵

ولما وصل المسلمون إلى المنطقة خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي أخذوا عن غيرهم هذه التسمية لذيوعها واشتهارها. وعند ابن خلدون أن الملك افريقش لم يفهم لغة القوم الذين حل بينهم، فتعجب

¹ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 248 هـ))، دار الكتب العلمي، بيروت، (د ت). ص 187؛

ابن خرداذبه، مصدر سابق، ص 86؛ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 38؛ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 219.

² ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 229.

³ لقبال موسى : مرجع سابق، ص 16؛ مؤنس حسين : مرجع سابق، ص 5.

⁴ الجليلي عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، ط 2، بيروت، 1965. ج 1، ص 48.

⁵ نفسه.

وقال : "ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة"¹. ويرى بعض المؤرخين أن كلمة بربر هي اسم صوت، لأنهم عندما يتكلمون يكررون حرفي الباء والراء كثيرا². أما هؤلاء فإنهم يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم³.

2 - الأمازيغ : وهو اسم انتشر بشكل واسع في بلاد المغرب، مما جعل البعض يعتبره الاسم الحقيقي

لسكان شمال افريقيا، وأن كلمة مازيغ أو أمازيغ تعني النبل أو الحر⁴.

أما عن أصلهم فقد تعددت الروايات والتفسيرات،⁵ ويبدو أن الأقرب إلى الصواب هو ما ذهب إليه ابن خلدون أن البربر نزحوا إلى شمال افريقيا منذ ثلاثين قرنا قبل الميلاد قادمين من بلاد كنعان أي فلسطين أو ما جاورها، أو ربما من بيت المقدس هارين أمام داود (عليه السلام) حين غلبهم⁶. وبعد أن سرد مختلف الأقوال والآراء حول نسبهم وأصولهم، فقد انتهى إلى التأكيد على أنهم اكتسبوا هذا الاسم من أبيهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح⁷.

3. أوضاع بلاد المغرب قبل الفتوحات الاسلامية

أ - الوضع السياسي :

قبل وصول المسلمين إلى بلاد المغرب، كان يحكم افريقية بطريق يسمى جريجوريوس (Grégoire) وقد ورد في المصادر العربية باسم جرجير، وهو آخر حاكم بيزنطي في شمال افريقيا، وقد شق عصا الطاعة على حكومة بلاده محاولا الاستقلال عنها، مستغلا في ذلك ضعف الحكومة المركزية في القسطنطينية وعدم قدرتها على الدفاع عن المناطق والمقاطعات التابعة لها، ومستعينا ببقايا جند الروم، وما استطاع تجنيده من مرتزقة أفارقة

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 176.

² الشعراوي احمد إبراهيم، دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015. ص 14.

³ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، (د ن)، (د م)، 2004. ص 28.

⁴ حارش محمد الهادي، مرجع سابق، ص 26.

⁵ انظر هذه الآراء والنظريات مفصلة في : المرجع السابق، ص 27-33.

⁶ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 2، ق 1، ج 3، ص 20-21.

⁷ نفسه؛ مج 6، ق 1، ص 191.

وبربر. وكان يتهياً لتأسيس دولة يتولى حكمها بنفسه في شمال افريقيا،¹ وكان يخشى أن يتعرض لهجوم بيزنطي يأتيه عن طريق البحر، فنزح نحو الجنوب وغير عاصمته من قرطاجنة إلى سببلة² الواقعة جنوباً وتحصن بها. في هذه الأثناء كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت إلى الشام ومصر، وأخذ المسلمون يستعدون لفتح برقة وهي مدخل بلاد المغرب.

ب - الوضع الاقتصادي :

كانت الزراعة النشاط الاقتصادي الرئيسي لسكان بلاد المغرب، وقد اهتموا أكثر بزراعة القمح وأشجار الزيتون والكرام، غير أن الروم كانوا يحتكرون الملكيات الكبرى والمساحات الشاسعة، ولم يتركوا للفلاحين المغاربة إلا النزر اليسير من الأراضي الصالحة للزراعة، ولذلك فإن أغلب الأهالي والفلاحين كانوا عمالاً أو عبيداً في مزارع البيزنطيين. ورغم أن النشاط الزراعي طغى على الأنشطة الاقتصادية الأخرى، فهذا لم يمنع وجود نشاطات حرفية متنوعة مثل صناعة الأنسجة والفخار والخزف التي كانت مكتملة للنشاط الزراعي.³ كانت التجارة من النشاطات الاقتصادية التي ازدهرت قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، حيث ساهمت هذه المنطقة في تجارة البحر المتوسط، إضافة إلى مساهمتها في التجارة الداخلية إذ كان البربر يسيطرون على طرق التجارة الصحراوية.⁴ أما بالنسبة للنظام المالي البيزنطي في بلاد المغرب فقد اعتمد بشكل أساسي على جباية الضرائب، لأن طبيعة الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب جعل السلطة الحاكمة تقتصر على السياسة الدفاعية مثل بناء القلاع والحصون، مما جعل إدارتها تستعمل المصادر المالية الضريبية لتمويل مشاريع ونشاطات الأشغال العمومية والمنشآت العمرانية، وحتى المساهمة في تمويل مشاريع السياسة الدينية، وتخصيص جزء من تلك المصادر لدفع رواتب العاملين في الإدارة البيزنطية، ونفقات الحروب ورواتب الجند، إضافة إلى ما يدفع لرؤساء البربر لضمان ولائهم. ويستنتج من ذلك أن الضرائب كانت ثقيلة ومتنوعة لأن الحاكم البيزنطي المحلي كان مكلفاً من

¹ Diehl Charles, L'Afrique byzantine histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Ernest Leroux éditeur, Paris 1896. p. 555.

² سَببِلَة : مدينة من مدن افريقية وهي كما مدينة جرجير الملك الرومي وبينها وبين القيروان حوالي مائة وستة كلم. (نظر : الحموي، مصدر سابق، ج 5، ص 20).

³ حارث محمد الهادي، مرجع سابق، ص 204-211.

⁴ طه عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004. ص 48-61.

الحكومة المركزية في القسطنطينية بجمع أموال طائلة، وكثيرا ما كان يغالي في تقرير الضرائب، ويستعمل العنف لجبايتها.¹ ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الطريقة في جباية الضريبة إلى تدهور العلاقة بين الأهالي والحكام البيزنطيين.

ج - الوضع الاجتماعي :

يعتمد التنظيم الاجتماعي للبربر على التنظيم القبلي، ويميز النسابة بين قسمين من البربر هما :

- قبائل البرانس : ينسبون إلى برنس بن بر بن مازيغ، غلب عليهم طابع الاستقرار والتحضر وممارسة الزراعة.² ومنهم : مصمودة، وازداجة، وأوربة، وعجيسة، وكنامة، وصنهاجة، وأوريغة، ولمطة، وهسكورة، وحزولة، وهواره، وغمارة، ومسطاطة ...
- قبائل البتر : ينسبون إلى مادغيس الأبت بن بر بن مازيغ، ويغلب على هذه المجموعة طابع البداوة والميل إلى الإغارة على ما يجاورهم من العمران وكانوا يسكنون الصحاري والواحات في الجنوب. ومن قبائلهم أداسة، ونفوسة، ونفزاوة، ومغراوة، ومظفرة، ومغيلة، ومكناسة، ومديونة، وزواغة، وضريسة، ولواتة، وزناتة ...³

ويرى بعض المؤرخين أن هذا التقسيم يعتمد على أسلوب الحياة والطابع الحضاري، فالفوارق بين المجموعتين هي فوارق اجتماعية لا جنسية أو عرقية، وليست ناشئة عن انتساب كل منهما إلى جد كما يذهب النسابون.⁴ وربما يعود هذا التقسيم إلى مناطق استقرار البربر، حيث كانت معظم قبائل البتر تعيش في السهول الداخلية التي تتميز بمناخها المعتدل الحار، بينما كانت قبائل البرانس تعيش في مناطق الجبال الباردة. ويزعم بعض المؤرخين أن لفظي البتر والبرانس اشتقتا من اللباس الذي يرتديه البربر. حيث كان سكان الجبال يرتدون برنسا كاملا، أي بغطاء الرأس، ومن

¹ عيش يوسف، الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، دار بقاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2009.

ص 190-192؛ مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 21-23؛ Diehl, op. cit., p. 320.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 17.

³ مؤنس حسين، فتح العرب، ص 6.

⁴ مؤنس حسين، فتح العرب، ص 6.

هنا جاءت كلمة برانس، واكتفى سكان السهول بلباس برنس أبتز، أي من غير غطاء الرأس، ولهذا سموا بالبتر.¹ ولا يعترف المؤرخون الأوروبيون بوجود برنس بن ير، ومادغيس الأبتز، ولا يعتمدون على هذا التقسيم في أبحاثهم ودراساتهم.² ويوجد تشابه بين العرب والبربر في بعض الصفات والخصائص الاجتماعية، مثل الكرم، والشجاعة، وحدة المزاج، وحب النزال، والعصبية القبلية. ويعتقد البربر في الخرافات والسحر والشعوذة والتنبؤ...، كما انتشرت بينهم أديان مختلفة، غير أن غالبية قبائلهم كانت وثنية، تعبد الكائنات والظواهر الطبيعية لاسيما في البوادي والجبال والصحراء،³ ومنها من بقي على الجوسية ثلاثة قرون بعد الفتح، كما هو الحال بالنسبة للملثمين من صنهاجة "الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب".⁴ ومع هذا فقد اعتنق بعضهم الديانات السماوية، فانتشرت المسيحية بين البربر المستقرين بجوار البيزنطيين في المدن والسهول الساحلية، مثل قبائل زناتة في موريطانيا القيصرية، وقبائل أوربة في جبال الأوراس، ونفوسة في طرابلس. وانتشرت بين بعضهم اليهودية عن طريق التجار اليهود، مثل قبيلة جراوة، وبعض الجماعات من نفوسة في طرابلس، وفي المناطق الغربية من الشمال الأفريقي، حيث ظلت باقية بعد الفتوحات الإسلامية. غير أن انتشار هذه الديانات كان انتشارا سطحيا ضعيفا، ولم يكن لها نفوذ وتأثير قوي على وجدان البربر، بدليل أن المسلمين لم يجدوا صعوبة كبيرة في إقناعهم باعتماد الإسلام، ثم صاروا من أشد الشعوب تعصبا له ودفاعا عنه، بل ساهموا في نشره.⁵

¹ طه عبد الواحد ذنون، مرجع سابق، ص 47.

² Gautier E. F., op. cit., p. 204.

³ العبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت). ص 16.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 370-373.

⁵ طه عبد الواحد ذنون، مرجع سابق، ص 47-48؛ العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 16-17.

ثانيا : الفتوحات الإسلامية

1. مرحلة الحملات الاستطلاعية (21-49هـ/642-669م)

حملة عمرو بن العاص : تعود العمليات الأولى لفتح بلاد المغرب إلى سنة 21هـ/642م، بعد أن أكمل عمرو بن العاص فتح مصر وبناء عاصمته الجديدة "الفسطاط"¹، فتوجه بنظره نحو الغرب، وأراد إتمام الفتوحات والوصول إلى برقة، وطرابلس. وكان عمرو يهدف من ذلك، القضاء على كل خطر بيزنطي يمكن أن يشكل خطرا على المسلمين في المستقبل. وربما سيجمع البيزنطيون كل قواهم في برقة أو طرابلس ويسترجعون مصر ثم الثوب منها إلى الشام. ولذلك ينبغي القضاء على هذا المشروع وتأمين حدود الدولة الإسلامية من جهة افريقية.² ولكي يحقق عمرو بن العاص هذا الهدف، أرسل الطلائع الأولى لاكتشاف المنطقة والتعرف عليها، فأرسل عقبة بن نافع الفهري، وعاد هذا الأخير بأخبار مشجعة عن المنطقة، وعن سكانها من قبيلة لواتة البترية، فشجعتهم تلك الأخبار ليخرج بنفسه على رأس جيش إلى برقة³، "فصالح أهلها على الجزية"⁴، وتقدم حتى بلغ طرابلس دون معارك تذكر. ولما اقترب من إقليم افريقية أحس بالتحصينات القوية التي أقامها جريجوريوس، فلم يشأ أن يغامر بأرواح المسلمين، وعدته غير كاملة، وعدد جنوده قليل، وأراد أن يستطلع رأي عمر بن الخطاب في المدينة، فنهاه إشفاقا على مصير المسلمين في بلاد مجهولة، وفي محيط بشري غير معروف، فقال : "إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"⁵. فرجع عمرو إلى الفسطاط وترك عقبة بن نافع في برقة يعمل على تعليم الأمازيغ مبادئ الإسلام، ونشره بينهم.

حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح : قام عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بعزل عمرو بن العاص

عن ولاية مصر، وعين في مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 25 هـ أو في 26 هـ / 645م، وهو أخ

¹ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 34.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 18.

³ نفسه.

⁴ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 8.

⁵ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 232.

عثمان بن عفان من الرضاعة، وكان كاتباً للوحي، ثم ارتد عن الإسلام وعاد إلى مكة، ولما فتح الرسول ﷺ مكة، سعى له عثمان بن عفان عند الرسول (صلى الله عليه وسلم). فعفا عنه ومنذ ذلك الوقت حسن إسلامه.

وما أن استقر بمصر، حتى استأذن عثمان لمواصلة الفتح في بلاد المغرب، وبعد الاستشارة أذن له عثمان في ذلك، فسار على رأس جيش يتكون من حوالي عشرين ألف جندي، وقد اشترك في هذا الجيش عدد كبير من أبناء الصحابة، والكثير منهم يسمى عبد الله، ولذلك اشتهرت هذه الحملة بحملة العبادة (عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن عمر بن الخطاب). وكل هؤلاء كانوا يكونون الجيل الجديد من أبناء الدعوة الإسلامية، وكانوا في حاجة إلى التدريب والتكوين في شؤون الدعوة والقيادة والامارة.

ويبدو أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لم يرد إعادة فتح طرابلس من جديد بعد أن حصنها أهلها، فتوجه مباشرة إلى سببلة حيث مقر جريجوريوس الذي رفض الدخول في الإسلام أو دفع الجزية حيث قال: "لو سألتموني درهما لم أفعل"¹. ثم دارت المعركة بين الطرفين، فدارت الدائرة على الروم، وقتل جريجوريوس، وتقهقر الروم إلى حصن الجهم أو الأعاجم الواقع في الشمال، فحاصره المسلمون مدة طويلة ثم عرضوا الصلح على المسلمين مع دفع الجزية، فقبل عبد الله بذلك وعاد إلى مصر مع جيشه دون أن يترك حامية أو يعين فيها والياً. ويبدو أن الحملة قد حققت مغام كثيرة، وكان لابن أبي سرح نصيب كبير منها، ولكن لم يخطر ببال هذا القائد الفاتح أن يترك في افريقية من يخلفه، أو حامية من المسلمين تحافظ وتراقب المناطق التي فتحها المسلمون، ولم يتم بناء قاعدة أو معسكر يلجأ إليها المسلمون وتكون منطلقاً لهم في الفتوحات القادمة. وغادر ابن أبي سرح افريقية بعد أن أقام بها ما يزيد عن سنة² عائداً إلى مصر واستقر في مقر ولايته بالفسطاط.

وتذكر المصادر أن هذا القائد قام بحملة أخرى على افريقية سنة 33هـ/653-654م "حين نقض أهلها العهد"³ دون أن تذكر لنا من هم الذين نقضوا العهد هل هم الروم أم البربر؟ واستمر ابن أبي سرح في منصبه

¹ المالكي، (أبو بكر عبد الله بن محمد (ت 474هـ))، رياض النفوس، حققه بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1994. ج 1، ص 17.

² بن عميرة محمد، مرجع سابق، ص 48.

³ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 50.

واليا على مصر وافريقية حتى سنة 35هـ/655-656م، حيث سافر إلى المدينة المنورة، ولما أراد العودة إلى مصر منعه معارضوه، ومعارضو عثمان من الدخول وحاربوه، فغادر مصر إلى عسقلان أو إلى الرملة ومات بها سنة 36 هـ، وتذكر مصادر أخرى أنه شهد صفين وعاش إلى سنة 57 هـ/676-677م.¹

ومهما يكن، فإن المسلمين - بعد هذه الحملة - قد شغلوا بأحداث الفتنة الكبرى، مما جعل الفتوحات تتعطل فترة من الزمن، وربما كان ذلك فرصة مواتية للروم لاستعادة ما فتحه المسلمون سابقا. ولما استقرت الأحوال، واستعاد المسلمون وحدتهم واتفقوا على معاوية بن أبي سفيان خليفة سنة 41 هـ، عين هذا الأخير عمرو بن العاص واليا على مصر للمرة الثانية، ولكنه لم يعد إلى الفتوحات في افريقية كما كان الأمر في ولايته الأولى، وربما كان ذلك لكبر سنه أو لعوامل أخرى... واستمر في ولايته إلى سنة 42 أو 43 هـ.

أما عن أوضاع افريقية خلال سنوات الفتنة، فقد اضطرب أمرها حيث طالب البيزنطيون من الأهالي مبالغ مالية أسوة بما أخذه المسلمون منهم بعد حملة العبادلة، وكان البيزنطيون يضغطون على الأهالي ويلحون عليهم، وهؤلاء يصرون على الامتناع، ما أدى إلى بروز الفتنة والاضطراب في بلاد المغرب.² وقد أدى ذلك إلى طرد مندوب الامبراطور من طرف القائم بأمر افريقية وهو جناديوس وهذا بمساعدة ورضا السكان، ثم لجأ هذا الأخير إلى معاوية بن أبي سفيان في دمشق.³ فوصف له حال افريقية وسأله أن يبعث إليها جيشا ليساعده في الحرب ضد أحد معارضيه وهو الأطربون الذي جمع حوله عددا من الأهالي يريدون تقديمه عليهم، فوجه معه معاوية بن حديج في جيش كثيف⁴، وبذلك تبدأ حملة جديدة ومرحلة أخرى من تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

حملة معاوية بن حديج : سبق لابن حديج، أن شارك في جيش عمرو بن العاص في فتح مصر سابقا، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب، كما شارك إلى جانب عبد الله بن سعد بن أبي سرح في حملة العبادلة، ويعتبر من أخلص الرجال لقضية عثمان بن عفان وحزب بني أمية.

¹ بن عميرة محمد، مرجع سابق، ص 51.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 26.

³ نفسه.

⁴ بن عميرة محمد، مرجع سابق، ص 55.

المهم أن معاوية بن أبي سفيان أرسل سنة 45 هـ/665م، جيشا يقوده معاوية بن حديج، ولما وصل إلى افريقية وجد أن الروم قد نزلوا في ميناء سوسة بقيادة نففور، ولكنهم هرعوا إلى سفنهم بمجرد أن سمعوا بعودة المسلمين، فاستولى ابن حديج على ما تركه الروم في افريقية، ثم فتح جلولاء، وجربة، وبنزرت، وانسحب المسلمون من جديد إلى مصر دون أن يجعلوا من المغرب ولاية تابعة لهم.¹

ويبدو أن هذه الحملة رغم رجوعها إلى مصر كغيرها من الحملات السابقة إلا أنها وضعت معالم سياسة الاستقرار، مثل :

أ - حفر معاوية آبارا يشرب منها الجند وحيولهم، سميت آبار حديج.

ب - بنى دورا ومساكن بالطوب، أطلق عليها اسم القيروان وذلك قبل أن تظهر مدينة القيروان الحالية، ومن هذا المعسكر كان معاوية يرسل السرايا إلى الأنحاء.

ج - دفن بعض الصحابة الذين استشهدوا في هذه الحملة إلى جوار المعسكر.

كما اتضح من الحملات السابقة أن افريقية تعتبر ميدانا مفتوحا لا يعترض تقدم المسلمين فيه مانع كبير، خاصة بعد أن شرعت بعض القبائل البربرية في اعتناق الإسلام.² ولكي يستقر المسلمون بشكل دائم في بلاد المغرب، لا بد وأن يجعلوا من هذه المنطقة ولاية تابعة للدولة الإسلامية في دمشق، وهذا ما سيحدث في الحملة القادمة.

2 - مرحلة الفتح المنظم (50-69 هـ/670-688م)

فتوحات عقبة بن نافع الأولى : يعتبر آخر من دخل افريقية من طبقة الصحابة، وقد سبق له وأن شارك

في الفتوحات مع عمرو بن العاص منذ ربيع قرن تقريبا. وقد عينه معاوية بن أبي سفيان واليا على افريقية سنة 50 هـ/670م، وأرسل له قوة عسكرية تعمل تحت إمارته.

سلك عقبة بن نافع طريقا مغايرا لما اعتادت عليه الفتوحات السابقة، حيث سلك طريق الصحراء عبر الواحات متجنباً الطريق الساحلي في الشمال، فخضعت له قبائل لواتة ومزاتة، وعد قصور، كما سيطر على

¹ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 260.

² مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 37.

مدينة غدامس، وقفصة ثم توزر وهي آخر الحواضر في الجنوب، ثم اتجه نحو الشمال. ووقف عند المعسكر الذي أقامه سلفه معاوية بن حديج، فلم يعجبه كثيرا، وقال لأصحابه: "ان افريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام؛ فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر".¹

وبعد التشاور والبحث تم الاتفاق على بناء مدينة تكون قاعدة للمسلمين في بلاد المغرب في الموقع الحالي الذي توجد فيه مدينة القيروان في تونس وسميت "القيروان"، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح. وتذكر المصادر أن الموضوع كان غابة تمتلئ بالوحوش وقد استمرت عملية البناء حوالي خمس سنوات (50-55 هـ/670-675م)، وقد خططت المدينة على المدن التي أنشأها المسلمون مثل الكوفة والبصرة والفسطاط (المسجد الجامع، دار الإمارة، الخطة...).²

وكما كانت الفسطاط نواة لولاية مصر، فإن القيروان أصبحت نواة لولاية إسلامية جديدة، هي ولاية افريقية. وأصبح للمسلمين في بلاد المغرب مسجدا جامعاً وداراً للإمارة، ومعسكراً للجند ومأوى لذويهم ومستودعا لذخائرهم، ولم يعد المسلمون مضطرين للانسحاب إلى مصر، بل أصبحت القيروان قاعدة لهم منها ينطلقون للفتح ونشر الإسلام وإليها يعودون.³ ويعلق ابن الأثير على بناء المدينة قائلاً: "وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السراية فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها".⁴

ومما لا شك فيه أن القيروان قد أصبحت منارة للثقافة والعلم ومقصدا للتجار والصناع، فتألفت في بلاد المغرب وفتت انتباه والي مصر مسلمة بن مخلد، فمالت نفسه إلى السيطرة عليها وجعلها من بلادها.⁵ وأصبح يتحين الفرصة لعزل عقبة عن افريقية، واستغل في ذلك ظرفين هما:

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 19.

² مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 39-40؛ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 30.

³ مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، ص 156.

⁴ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ))، الكامل في التاريخ، ط 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983. ج 3، ص 230.

⁵ مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، ص 147.

الأول : أن عقبة - خلال مدة بنائه للقيروان - كان منصرفا لها فقط، فانصرف عن مسلمة بن مخلد ولم يحفل به، فأغار بذلك صدره دون أن يدرك ذلك.

الثاني : ابتعد عقبة خلال السنوات الخمس عن الإغارة واهتم بكسب ولاء السكان، فانقطع ما كان يصل من أموال وغنائم وهي المقياس الذي يقيس به أولي الأمر في مصر أو دمشق مدى نجاح القائد في مهمته. والحقيقة أن بناء القيروان، قد جعل عقبة من أكبر فاتحي بلاد المغرب، ويعتبر من أكبر بناء الدولة الإسلامية. وبدلا من أن تقوم السلطة السياسية في دمشق بتثبيتته في منصبه ليستمر في الفتوحات، عملت على عزله، حيث تلقى أمرا بالعزل سنة 55 هـ/675م، من طرف معاوية بن أبي سفيان بناء على طلب والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، وعين في مكانه أبو المهاجر دينار.

فتوحات أبي المهاجر دينار : أغفلت المصادر والمؤرخون وكتاب التراجم عن ذكر شيء ذي بال عن أبي المهاجر، فهو ليس من الصحابة ولا من التابعين وغير عربي، وربما كان مصريا، وهو مولى مسلمة بن مخلد والي مصر، وقد كان أثيرا عند مولاه وخادما مطيعا، وتميز بفضة وذكاء، ولذلك قربه إليه مسلمة، ونظرا لإخلاصه ولاءه إفريقية مكافأة له.¹

وفور وصوله إلى إفريقية قام بتصفيد عقبة وسجنه، ثم هجر القيروان، واتخذ موقعا جديدا سماها البربر تكيروان، وأخذ في عمارتها، وربما كانت هذه الإساءة بتأثير ووحى من مولاه. ولم يطلق سراح عقبة إلا بعد أن تدخل الخليفة وأمر بإرساله إلى دمشق، حيث قدم لمعاوية بن أبي سفيان شكواه في ألم وأسى قائلا: "فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة، ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصاري فأساء عزلي".² فأجابه الخليفة: "قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته"³، واعتذر لقبه ووعدده خيرا، ولم يعاقب مسلمة ولا أبا المهاجر، لأن مسلمة كان أثيرا لدى معاوية بن أبي سفيان.

وفي هذه الأثناء ظهر كسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة البرنسية وهي على النصرانية، يرفع لواء المقاومة ضد الفتح الإسلامي، وربما كان ذلك تحالفا مع البيزنطيين أو بقايا الروم في قرطاجة والساحل، والتقت جموع كسيلة

¹ المرجع السابق، ص 158.

² ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 266.

³ نفسه.

الزاحفة من هوامش المغرب الأقصى مع جموع أبي المهاجر، وانتهت بهزيمة البربر وأسر قائدهم. ويبدو أن الحرب بينهما لم تكن عنيفة، لأن أبا المهاجر كان يفضل سياسة اللين والمداراة لكسب البربر إلى جانبه. وقد أثمرت هذه السياسة باعتراف كسيلة الإسلام وتبعته قبيلته، وكانت نصرانية، ثم توطدت العلاقة بين الرجلين، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه أبي المهاجر دينار إلى القيروان.¹

بينما كانت الأحداث في بلاد المغرب تجري وفق ما يريده أبو المهاجر دينار ومسلمة بن مخلد، فإن الأحداث في المشرق كانت تجري لصالح عقبة بن نافع، حيث توفي معاوية بن أبي سفيان سنة 60 هـ، وخلفه ابنه يزيد، ففقد مسلمة بن مخلد نصيره في دمشق ولم تعد له تلك المكانة التي كانت له أيام معاوية. ثم توفي مسلمة سنة 62 هـ، وهي السنة التي عاد فيها عقبة بن نافع إلى بلاد المغرب.

حملة عقبة بن نافع الثانية: أمر يزيد بن معاوية بتعيين عقبة بن نافع والياً على إفريقية سنة 62 هـ،

فاستهل عمله بالقبض على أبي المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وشد وثاقهما بالحديد، ثم عاد إلى القيروان فأصلحها وأعاد إليها بهجتها وروحها.²

ورغم أن عقبة بن نافع كان متحمساً ومانعاً لمواصلة الفتح خوفاً من عزل جديد، ورغم ما اتصف به من إقدام وإيثار وإيمان، فإنه لم يستطع أن يغفر لأبي المهاجر ما فعله به سابقاً، فانتقم منه وارتكب خطأ حينما ألقى القبض على كسيلة وذببه في ذلك أنه صديق أبا المهاجر دينار، وقد نصح عقبة بضرورة إحسان معاملة كسيلة باعتباره حديث عهد بالإسلام، حيث قدم له النصيحة قائلاً: "ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه! توثق من الرجل فيني أخاف فتكته".³ وهذا يدل على أن عقبة كان يفتقد لبعده النظر في الشؤون السياسية ومعاملة الملوك وكبار القوم.

قرر عقبة مواصلة الفتوحات وسار من القيروان متجهاً نحو الغرب فدخل جبال الأوراس وهي منطقة صعبة التضاريس، فوجد صعوبة في اقتحام حصن باغاية بسبب تحالف الروم مع البربر، ثم اتجه نحو الشلف وهو

¹ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 42.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 40.

³ المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 41.

يحارب القبائل الأمازيغية في طريقه ويدعوها للإسلام حتى بلغ مدينة طنجة في المغرب. والتقى بيوليان الذي أهدى إلى عقبة هدية حسنة، "فسأله عن بحر الأندلس فقال له إنه محفوظ لايرام، فقال دلني على رجال البربر والروم، فقال قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم، فقال عقبة وأين موضعهم؟ قال في السوس الأدنى وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه".¹ ويفهم من هذه الأقوال أن يوليان لم يكن روميا ولا بربريا -ربما كان قوطيا. ثم اتجه نحو الجنوب مخترقا جبال الأطلس موطن مصمودة، ثم اتجه نحو الغرب من جديد حتى بلغ مدينة أغادير المطلة على المحيط الأطلسي. ثم بدأ يعود أدراجه مخترقا في طريق عودته بلاد البربر، وكان بيني مسجدا في كل مدينة يمر بها. ولما كان في طريق العودة إلى القيروان، سمح لكثير من جنوده بالعودة، بسبب بعدهم الطويل عن أهلهم، ولم تبق معه إلا قوة يسيرة، كما تمكن كسيلة من الإفلات من أسره، وعاد إلى قبيلته أوربة، وتمكن من لمّ شملها وراح يتحين الفرصة للانتقام من عقبة.²

ولما وصل عقبة بن نافع إلى سهل تهودة جنوب بسكرة، تعرض لحصار شديد من البربر والروم يقودهم كسيلة، واندلعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين انتهت باستشهاد عقبة وأصحابه سنة 64 هـ/683م، في المكان المعروف حاليا بسيدي عقبة جنوب بسكرة.³

أما كسيلة، فقد دخل مدينة القيروان واستولى عليها، ولم يبق فيها إلا نفر قليل من المسلمين، ولكنها من الناحية السياسية خرجت من أيدي المسلمين وأصبحت تحت حكم كسيلة البربري، ولذلك ينبغي استعادتها لأن فيها مساجد وحقوق اكتسبت، وطوائف من المسلمين.⁴

فتوحات زهير بن قيس البلوي : كان مع جيش عقبة بن نافع في حملته الثانية، ثم تركه عقبة في القيروان كخليفة له حينما خرج في حملته الكبيرة والأخيرة. وبعد استشهاد عقبة في معركة تهودة انسحب زهير بن قيس إلى برقة، يراقب من هناك تطور الأحداث و ينتظر مددا يصله من دمشق للانتقام لعقبة واستعادة القيروان.

¹ النوري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ))، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004. ج 24، ص 14-15.

² مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 45.

³ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 29.

⁴ مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، ص 206.

ولكن الخلافة الأموية في دمشق كانت مشغولة ببعض الأحداث الداخلية، حيث توفي يزيد بن معاوية بعد معركة تهودة بقليل، ولم يستمر ابنه معاوية الثاني في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر، ثم انتقل الحكم إلى الفرع المرواني (مروان بن الحكم) ثم اندلعت ثورة عبد الله بن الزبير، وبعد وفاة مروان خلفه ابنه عبد الملك بن مروان فواجهته مشاكل الشيعة والخوارج وأتباع الزبير في الحجاز والعراق. وبعد مدة ظهرت بوادر الاستقرار واستجاب عبد الملك بن مروان لرغبة كبار المسلمين في ضرورة الثأر لعقبة. فقام بتعيين زهير بن قيس البلوي واليا على افريقية وقد كان آنذاك مرابطا في برقة وأمدّه بالجيش والمال.¹

خرج زهير سنة 689هـ/688م، من برقة متجها إلى افريقية ولما علم كسيلة بقدوم المسلمين أدخل مدينة القيروان وخرج على رأس جيشه وأقام على وادي ممس (ممش)، وهو المكان الذي التقى فيه الجمعان ودارت بينهما معركة حامية، وكانت من أشد ما مر بالمسلمين في افريقية إلى ذلك الحين، وخرج المسلمون منتصرين، وقتل كسيلة وعدد غير قليل من كبار الروم والبربر، ثم شرع المسلمون في مطاردة الفارين حتى بلغوا نهر ملوية.

بعد هذه المعركة دخل زهير إلى مدينة القيروان ليترتب أمورها ويصلح ما فسد من أمورها، وما أن تم له ذلك حتى أظهر رغبته في العودة إلى المشرق، فقال: "إنما أحببت الجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك"،² وترك حامية بالقيروان، ورحل في جمع كبير يريد الشرق. ويعتبر ذلك خطأ سياسيا واستراتيجيا.³ وأثناء عودته ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة منسحبا إلى مصر، وعندما اقترب زهير من طرابلس كان قد بقي معه سبعون رجلاً فقط من خيرة رجاله، وسمعوا أن الروم قد قاموا بغارة على طرابلس ثم رأوهم يعودون إلى مراكزهم ومعهم أسرى المسلمين يستغيثون. فأراد زهير أن ينتظر حتى يصل بقية الجيش ليهاجم الروم، ولكن بعض الشباب اندفعوا للمعركة بعد أن عبروه بالجن، فما كان منه إلا أن يحمل سيفه مع من بقي معه، ما أدى إلى استشهاد زهير وكل من كان معه في منطقة درنة.⁴ وكانت المصيبة به كالمصيبة بعقبة.⁵

¹ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 49.

² النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 17.

³ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 53.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 1، ص 273.

⁵ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 18.

ورغم أن أفراد الجيش الذين كانوا بعيدين عن المعركة ولم يشتركوا فيها، تمكنوا من الوصول إلى دمشق ورووا لعبد الملك ما وقع لزهير، فإن الخلافة الأموية كانت قد صرفت نظرها إلى ما تبقى من حركة ابن الزبير في العراق والحجاز، وتبديد شمل الحركات المذهبية المتمثلة في الشيعة والخوارج. وبعد ان انتهت من ذلك بصورة نهائية حتى عزم عبد الملك بن مروان على مواصلة الفتوح في بلاد المغرب بشكل نهائي، وانتدب لهذه المهمة حسان بن النعمان.¹

3 - مرحلة الاستقرار واستكمال الفتوحات (69-90هـ/688-709م)

فتوحات حسان بن النعمان الغساني : هو أول أمير شامي يدخل افريقية من الأمويين، وقد استعمله عبد الملك بن مروان على افريقية سنة 74 هـ، وأمدّه بجيش عدته أربعون ألفاً من الجند، وبعد أن توقف فترة من الزمن في مصر، بدأ حملته سنة 76 هـ/695م، فدخل القيروان دون أن يصادف في طريقه أي مقاومة تذكر، ويبدو أنه وضع خطة واستراتيجية محكمة، حيث أراد القضاء على الروم أولاً ثم الالتفات إلى جيوب المقاومة الأهلية. ولما سأل عن أعظم ملك بإفريقية فقيل له صاحب قرطاجة²، فقصدتها بكل قواته وحاصرها، وقاوم من كان بداخلها مقاومة شديدة، وقتل منهم الكثير، ثم انقطعت المياه عن المدينة، وتظاهر أهلها بطلب الأمان، ثم أدخلوا المدينة ليلاً وهربوا على مراكبهم متجهين إلى صقلية أو الأندلس. وبذلك سقطت قرطاجة بين أيدي المسلمين. ولما أراد سكان فحس تونس وضواحي قرطاجة التحصن بالمدينة، أمر حسان بتهديمها وتخريب حصونها وأسوارها، ثم تابع بقية الروم والبربر إلى صطفورة وبنزرت حتى شردهم جميعاً وخافه أهل افريقية خوفاً شديداً. ثم عاد حسان مع جنده إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه³ ليستريح جيشه وينظم صفوفه من جديد. وكانت الجولة القادمة مع امرأة بربرية تلقبها المصادر بملكة جبال الأوراس، وهي الكاهنة.

لقبها ابن خلدون بـ "دُهيّا بنت ماتيّة بن تيفان ملكة جبال الأوراس"⁴، وكانت على رأس قبيلة جراويّة البترية الزناتية، وكانت تقيم في جبال الأوراس، وكانت على اليهودية مع قومها، وقد شنت مقاومة عنيفة على

¹ بن عميرة محمد، مرجع سابق، ص 126.

² مؤنس حسين، فتح العرب، ص 238.

³ المرجع السابق، ص 241.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 218.

الفاحين المسلمين. ويبدو من خلال الأحداث أن حسان توجه إليها لمقاتلتها بعد أن قيل له: "فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند"،¹ ولكنه انهزم واضطر إلى التراجع إلى برقة لأن الكاهنة طارده حتى أخرجته من افريقية وطرابلس وفي برقة استقر حسان بعض الوقت وأرسل إلى الخليفة يطلب المدد.² ثم شرعت الكاهنة في قطع الأشجار وتهديم القرى وإحراق الزروع حتى لا يطمع المسلمون في العودة إلى افريقية، ولكن هذه السياسة جعلت البربر ينفرون منها ويستغيثون بحسان. وكانت الكاهنة قد أسرت من رجال المسلمين رجلا يدعى خالد بن يزيد القيسي، فتبنته، وأرضعته مع ولديها، وصيرته أبا لهما، واتخذته مستشارا لها.³

وبعد أن وصل المدد من دمشق سنة 698هـ/79م، تحرك حسان لاستعادة افريقية وإغاثة المسلمين، وكان خالد بن يزيد يرأسل حسان سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها، وأدركت الكاهنة بأنها ستنهزم، فطلبت الأمان لولديها وكانت نهايتها القتل على يد المسلمين في موضع من جبال الأوراس سنة 80هـ/699م. وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان، ثم شرع في إتمام عمله بالقضاء على كل بقية للروم في قرطاجنة. وفي القيروان أخذ حسان في إعادة بناء المسجد وتوسيعه ثم اهتم بالتنظيمات الإدارية والمالية وواجهته مشكلة انعدام نظام إقليمي أو مالي سابق في افريقية ثم اعتمد على وحدة القبيلة وقد قسم بلاد المغرب إداريا إلى:⁴

1 - إقليم برقة

2 - إقليم طرابلس

3 - إقليم فزان

4 - إقليم افريقية

5 - المغرب الأوسط

6 - المغرب الأقصى

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 35.

² ابن خلدون، مصدر سابق، مج 4، ق 1، ص 401.

³ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 65؛ بن عميرة محمد، مرجع سابق، ص 143-144.

⁴ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب، ص 51-58.

قام حسان ببناء ميناء ودار للصناعة (للسفن) ومساكن للعمال والبحريين، وسميت المدينة الجديدة بتونس. بعد عشر سنوات قضاها حسان بن النعمان في افريقية يفتح ويبنى المدن والمساجد، عاد إلى المشرق، وقدم للخليفة عبد الملك بن مروان تقريراً عن إنجازاته، وقدم له الغنائم والأموال، فشكره الخليفة وعينه من جديد والياً على افريقية بما فيها منطقة برقة. ولما كان في مصر يجمع المتطوعين ويمنحهم الرواتب، استدعاه عبد العزيز بن مروان والي مصر وهو أخ الخليفة، وجرى بينهما نقاش حاد، أظهر فيه حسان تصلباً وعناداً، وانتهى اللقاء بقيام عبد العزيز بن مروان بتمزيق عقد التولية، وطلب منه العودة إلى دمشق قائلاً له: "أقعد في بيتك، فسيولى هذا الأمر من هو خير منك، وأولى به منك، في تجربته ومعرفته وسياسته، ويغني الله أمير المؤمنين عنك".¹

ولم يرد الخليفة أن يدخل في صراع مع أخيه، واكتفى بالاستماع لشكوى حسان، وأوصى به خيراً، رغم أن الخليفة استاء من تصرف أخيه بهذه الطريقة، وهمم بعزله لولا مرضه الشديد. وبعد هذه الحادثة بقليل، توفي والي مصر عبد العزيز بن مروان سنة 85هـ، فانتقلت ولاية مصر إلى عبد الله بن عبد الملك وبعدها بسنة، توفي الخليفة عبد الملك بن مروان، فخلفه ابنه الوليد الذي أرسل إلى والي مصر يؤكد على تولية موسى بن نصير على افريقية واستقلالها تماماً عن مصر وتبعيتها مباشرة إلى الخليفة في دمشق.

موسى بن نصير (85-95هـ/704-714م) : تضاربت المعلومات حول أصل موسى بن نصير، فبعضها تذكر أنه من أصل عربي، وأخرى تذكر أنه من أصل فارسي، وتكاد المصادر تتفق أن والده نصير كان من سبي عين التمر في العراق، أسره خالد بن الوليد فأسلم على يديه، وأصبح من رجاله.² والثابت أنه ولد في بلاد الشام في قرية تدعى كفر مري في عهد عمر بن الخطاب. فنشأ في جو عربي إسلامي، وكان في شبابه خادماً مخلصاً للأسرة الأموية في دمشق، وتقلد عدة مناصب إدارية وسياسية في الدولة الأموية، وكان على علاقة جيدة مع عبد العزيز بن مروان والي مصر آنذاك، ونال ثقته، حيث كان خادماً مخلصاً له قبل تعيينه والياً على شمال افريقيا، وبعد التعيين.³ لما قدم موسى بن نصير إلى افريقية كانت المقاومة قد انتهت في هذه المنطقة. وكانت الأوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولاً كبيراً، إذ أن معظم قبائل البربر لم تعد تقف موقفاً عدائياً ضد المسلمين.

¹ ابن قتيبة الدينوري (محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ))، الإمامة والسياسة، تحقيق الأستاذ علي شيري، دار الأضواء، بيروت، 1990. ص 71.

² مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 58.

³ طه عبد الواحد ذنون، مرجع سابق، ص 128-129.

غير أن هذا لا يعني انتهاء الحملات، بل إن موسى بن نصير سيقود حملات كثيرة، ويرسل أخرى إلى نواحي مختلفة من بلاد المغرب، وحقت من النتائج ما لم تحققه غيرها.

استهل موسى بن نصير نشاطه العسكري بتوجيه حوالي خمسمائة فارس إلى قلعة زغوان¹ الواقعة إلى الغرب من مدينة تونس الحالية، فتمكنوا من إخضاع قبائل البربر، ثم واصل نشاطه في اتجاه المغرب الأوسط، فلم يتعرض لأية مقاومة، بل صالحه أهل المدن، راغبين في مسالته وحمايته. كما أن قبائل البدو قدمت له طاعتها، وأسلم الكثير منهم، وخاصة الذين كانوا على الوثنية، فأخذ منهم الرهائن وضمها إلى الجند.² وبعد أن وطد نفوذه في المغربين الأدنى والأوسط، سار في اتجاه المغرب الأقصى وتحطمت أمامه مقاومة البربر، فلم يستطيعوا مقاومته حتى بلغ شواطئ المحيط الأطلسي.³ ويبدو أنه واجه صعوبات كبيرة عندما حاول أن يسيطر على السواحل التي تطل على منطقة مضيق جبل طارق (بحر الزقاق)، حيث كانت مدينة سبتة وما يجاورها تخضع لحاكم مسيحي من قبل القوط أو البيزنطيين يدعى جوليان أو يوليان، كانت له عدة وقوة لم ير لها موسى مثيلاً من قبل. ورغم ذلك فقد هاجم سبتة، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، ورأى موسى ألا يضيع وقته في أخذها بالقوة، فهادن يوليان وصالحه أو حالفه وأقره في منصبه، وربما تلقى منه أمداداً عسكرية قليلة لفتح الأندلس، ثم بعث حملات أخرى توغلت باتجاه الجنوب، فوصلت إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب. وعاد موسى إلى إفريقية، بعد أن أقام على ثغر طنجة المجاورة لسبتة ابنه مروان، وترك معه حامية قوية. غير أن مروان بن موسى بن نصير سئم المقام في طنجة، فنقله أبوه وولى مكانه طارق بن زياد، وكلفه بمراقبة سبتة وتشديد الحصار حولها، فاستقر هناك على رأس الحامية الإسلامية، وهو الذي سيشرع ابتداء من سنة 92 هـ/711م في فتح الأندلس.⁴

¹ زَغَوَانُ : هو اسم جبل بإفريقية، يقع بالقرب من مدينة زغوان في ضواحي مدينة تونس في القبلة، ويستدل به السائرون لظهوره وعلوه، لأنه يرى على مسافة أيام كثيرة. (انظر الحموي، مصدر سابق، ج 4، ص 477).

² بلحاج معروف وبودواية مبخوت، كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، رئيس المشروع عبد الحميد حاجيات، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، (د ت). ص 29.

³ الشعراوي أحمد إبراهيم، مرجع سابق، ص 46.

⁴ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 59-63؛ طه عبد الواحد ذنون، مرجع سابق، ص 131-136.

ولم يقتصر موسى على الفتوحات البرية، بل عمل على بناء أسطول بحري قوي لضرب القواعد البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط، وساعده على ذلك توفر الأخشاب الصالحة لبناء السفن في المغرب، واعتمد على البربر في تقطيع الأشجار ونقلها إلى دور الصناعة التي أقامها بالسواحل المغربية، وهكذا تمكن من ضرب قواعد البيزنطيين في جزر البحر المتوسط، فشلًا بذلك حركة أسطولهم، وتجنب الخطأ الذي وقع فيه الفاتحون السابقون لعدم حصولهم على أسطول مماثل يحمي ظهرهم وجناحهم. وبفضل هذه القوة البحرية سيقدم موسى بن نصير على فتح الأندلس بكل اطمئنان بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته الطويلة من خطر البيزنطيين.¹

وتذكر بعض المراجع الحديثة أن حملة موسى بن نصير في بلاد المغرب قد تميزت بضراوتها الشديدة إزاء كل قبيلة بربرية ترفض قبول الإسلام، واقتربت بالقسوة والعنف إزاء بعض القبائل القوية مثل قبائل هوارة وزناتة وصنهاجة ومصمودة،² بل تتهمه أنه أنزل مذبحاً بالناس، دون أن تكون هناك ضرورة، لأن الناس في المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول في الإسلام دون حرب، ولكن ذلك لم يكن ليحقق أطماع موسى لأنه كان متلهفاً للحصول على الأموال والأسلاب والمغانم لإرسالها إلى مصر والشام، وكان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم، وأن تلك الضربات الموجعة التي وجهها إلى القبائل البربرية تسببت في أضرار كبيرة للدولة الإسلامية، ومن عواقب سلوك موسى أن البربر أصبحوا يرون أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مالية ومادية.³ والحقيقة أن المصادر التاريخية قد أفاضت في ذكر السبي ووفرة الغنائم التي عاد بها موسى بن نصير، وبالغت في تقدير عددها. ولا شك أن ذلك الغلو في التقدير راجع إلى ميل الرواة إلى حشو أحاديثهم بالغرائب والأخبار المثيرة للإعجاب.⁴

والذي يغفل عنه كثير من المؤرخين أن موسى بن نصير سار على تلك السياسة المرنة التي بدأها أبو المهاجر دينار، فعمل على اصطناع البربر، وأشركهم في جيوشه على نطاق واسع، كما عهد إلى فقهاء المسلمين بتعليمهم قواعد الإسلام،⁵ "وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم في الدين"⁶.

¹ العبادي أحمد المختار، مرجع سابق، ص 46.

² طه عبد الواحد دنون، مرجع سابق، ص 135؛ الشعراوي أحمد إبراهيم، مرجع سابق، ص 47.

³ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 59.

⁴ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 29.

⁵ العبادي أحمد المختار، مرجع سابق، ص 45.

⁶ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 43.

أثناء فتح الأندلس وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد، فاستدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك. ولما وصل إلى غزوة جاءه رسول من قبل ولي العهد سليمان بن عبد الملك، يطلب منه التريث لأن الخليفة الوليد كان مريضا مرض الموت، والحقيقة أن ولي العهد كان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم. ولكن موسى أسرع السير، ولما وصل إلى دمشق وجد الوليد بن عبد الملك قد مات، فاستقبله الخليفة الجديد وهو سليمان بن عبد الملك شر استقبال، وأخذ كل ما كان معه وغرمه، وبعد مدة أدى موسى ما يسره الله له، ثم سأل سليمان بالباقي واتخذ نديما، ولكن موسى أعطى للدنيا ظهره واعتزل الناس، والحياة العامة، ثم مات في ظلال النسيان.

مع نهاية ولاية موسى بن نصير، تنتهي -نظريا- مرحلة فتح بلاد المغرب، أما -عمليا- فليس من السهل تحديد تاريخ معين انتهت عنده الفتوحات الإسلامية لهذه البلاد، لأنها ليست قطرا واحدا خضع بمعاودة أو عقب معركة فاصلة. وليس من السهل أيضا تحديد سنة ثابتة خضع فيها البربر أو أسلموا لأنهم كما قال عنهم حسان بن النعمان في كتابه الذي أرسله إلى الخليفة عبد الملك بن مروان عقب انهزامه أمام الكاهنة : "أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهم من الجهل والكثرة كسائمة النعم".¹

وقد استغرقت عملية فتح بلاد المغرب مدة طويلة تزيد عن السبعين سنة (من 21-98هـ/ 642-716م)، وهي مدة طويلة نسبيا، بينما المناطق والأقاليم الفارسية والبيزنطية التي فتحها المسلمون في المشرق استغرقت منهم مدة أقل بكثير، حيث فتحوا مصر في سنتين، والشام في أربع سنوات، والعراق وفارس في تسع سنوات، فلماذا استغرق فتح المغرب كل هذه المدة الطويلة ؟

يمكن تفسير هذه المدة الطويلة بمجموعة من العوامل منها :

أ - عوامل داخلية :

1. مناعة بلاد المغرب وصعوبة تضاريسها.
2. شدة مراس البربر وشجاعتهم في القتال.

ب - عوامل خارجية :

¹ المصدر السابق، ج 1، ص 36.

1. توقف الفتوحات الإسلامية، بسبب انقسام المسلمين على أنفسهم أيام الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

2. تحالف البربر مع الروم ضد المسلمين الفاتحين.

3. انعدام أسطول بحري، وقلة خبرة المسلمين في الشؤون البحرية، الأمر الذي مكن البيزنطيين من شن هجومات على سواحل المغرب ووقف تقدم المسلمين نحو الغرب.

4. بعد بلاد المغرب عن مركز الخلافة في المدينة المنورة أو في دمشق، أثر على سير الحملات وتجهيزها.

5. النزاعات بين ولاية مصر وقادة الفتوحات في إفريقية، ورغبة أولئك الولاة في الاستئثار بإفريقية، والتصرف في أموالها ومغانمها.

6. انصراف بعض الخلفاء عن فتح إفريقية، وانعدام خطة واستراتيجية واضحة لإتمام فتحها.

وخلاصة القول أن المسلمين بعد سبعين سنة من الكر والفر ومن النضال المستمر تمكنوا من تحقيق انجاز ضخم، وهو نشر الإسلام في بلاد المغرب، ولم يكن بإمكانهم تحقيق هذا الإنجاز لولا تطبيقهم لروح مبادئ الإسلام وسياسة التعاون والاندماج مع البربر، والابتعاد عن سياسة العنف، والعمل على اكتساب قلوب البربر عن طريق نشر الإسلام بينهم، وإدخالهم في الجيوش الإسلامية كجنود محاربين.¹ ويمكن القول أن ما قام به المسلمون في بلاد المغرب لم يكن مجرد غارات أو غزوات، وإنما كانت فتوحا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، أي فتح أبواب البلاد أمام الإسلام، وفتح قلوب الناس لاعتناق عقيدة التوحيد. وهي الكلمة التي جاء بها القرآن الكريم بعد فتح مكة "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ"²، كما توجد سورة كاملة في القرآن الكريم تسمى سورة الفتح، تبدأ بقوله تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا"³. وبهذا الفتح تحولت بلاد المغرب إلى بلاد إسلامية عقيدة وحضارة ولغة، فاندمج المغرب في جسم الدولة الإسلامية، وصار له طابعه العربي الإسلامي المعروف به حتى اليوم. ومع نهاية القرن الأول الهجري، كانت الفتوحات الإسلامية قد أحدثت تغيرات عميقة في البنية الاجتماعية والسياسية لبلاد المغرب، وتركت فيه آثار بعيدة المدى، ويمكن اختصار تلك التحولات في ما يلي:

¹ العبادي أحمد المختار، مرجع سابق، ص 47؛ طه عبد الواحد ذنون، مرجع سابق، ص 136.

² سورة النصر، الآية 1.

³ سورة الفتح، الآية 1.

- دخل عدد كبير من سكانه في الإسلام.

- انضمامهم إلى جيوش الإسلام

- أصبح لسكان المغرب حقوق العرب المجاهدين معهم.

- انتقال عدد كبير من العرب للاستقرار في نواحي المغرب، واختلطوا بالسكان وصاهروهم.

- ظهر جيل جديد من البربر المسلمين المستعربين الذين تطلعوا إلى إدارة البلاد.

- بناء القيروان وعديد المساجد، وبدأ الجو الثقافي العام يتغير بتأثير الإسلام واللغة العربية.

- زوال المدن الإغريقية والرومانية والقواعد العسكرية والتحصينات والقرى البربرية التي تتكسد فيها

المباني وظهر طراز جديد من المدن القابلة للتطوير حسب حاجات البلاد.¹

والخلاصة أن المغرب الذي عرفه عمرو بن العاص يختلف عن مغرب موسى بن نصير. ولا يعني ذلك أن

بلاد المغرب كانت مستقرة سياسيا خلال كل العصور الإسلامية، بل ظهرت فيها بعض الفتن والمشاكل، بسبب

طبيعة العرب الذين لم يكونوا مستعدين تمام الاستعداد للتنازل عن شخصية الفاتح والسيد. وهذا معناه أنهم لم

يكونوا مستعدين لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقوقهم، ومساواتهم معهم، ومن ثم ظهرت مشاكل كبرى بين

العرب الناطقين بالعربية والحاملين للإسلام، وبين المسلمين الجدد الذين كثيرا ما كانوا يتهمون العرب بالانحراف

عن الإسلام. والحقيقة أن العرب هم بشر، وقد أسلم كثير منهم على عجل. وظلت رواسب الجاهلية عالقة في

نفسياتهم وفي سلوكهم مدة طويلة. وإن انحرفوا عن جادة الإسلام فقد كان ذلك عن سوء فهم وقلة علم، لا عن

كفر أو سوء نية.²

¹ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 66.

² مؤنس حسين، معالم، ص 67.

ثالثا : عصر الولاية

مع عبور طارق بن زياد إلى الأندلس، وعودة موسى بن نصير إلى المشرق، تنتهي مرحلة الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب، وفي نفس الوقت تكون ولاية جديدة قد تكونت، وهي من نوع الولايات العامة، أي من ولايات الاستكفاء¹. وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الإسلامي تعرف بعصر الولاية، وهي الفترة الواقعة بين تمام الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، وقيام أول دولة مستقلة فيه، أي كانت صورة هذا الاستقلال. وإذا كان من المتفق عليه أن هذه المرحلة تبدأ بتعيين محمد بن يزيد أول وال على إفريقية الإسلامية الناشئة، فإن تاريخ نهاية هذه المرحلة يختلف من قطر لآخر، فقد انتهى عصر الولاية في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية سنة 164 هـ/781م، وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة 172 هـ/788م، وفي إفريقية بقيام الدولة الأغلبية سنة 184 هـ/800م. ونذكر باختصار أهم ولاية إفريقية.

محمد بن يزيد القرشي (97-100 هـ/716-718 م): ولاة سليمان بن عبد الملك، بعد عودة موسى بن نصير إلى المشرق، وعزل ابنه عبد الله عن المغرب، وقد أمره الخليفة باستئصال آل موسى، وتجردهم من ممتلكاتهم. ومن أعماله تعيين الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي واليا من قبله على الأندلس. ووصفت المصادر محمد بن يزيد أنه كان عادلا حسن السيرة قاتل المخالفين بثغور المغرب وغنم وسبا، ودامت ولايته سنتين واشهرها حتى مات سيمان².

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (100-101 هـ/718-719 م): ولاة عمر بن عبد العزيز الذي كان محل ثقته، وتأيدته، وفوض له شؤون إفريقية العامة، فكان حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام وترغيبهم فيه، حتى أسلم كثير منهم على يده. ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل، أمرهم أن يبذلوا جهدهم لتفقيه أهل المغرب في الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين. وهؤلاء التابعون هم: أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي . 100 هـ)، وأبو مسعود سعيد بن مسعود

¹ ولاية الاستكفاء: هي التي تنعقد عن اختيار من الإمام أو الخليفة، أي أن يفوض الخليفة إلى من يثق فيه إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله، وعكسها ولاية استيلاء بعقد عم اضطرار. (انظر: الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ))، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989. ص 40).

² ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 213؛ السلاوي الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (د ن)، (د م)، (د ت). ج 1، ص 46.

التحبيي، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله (ت 107هـ)، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت 113هـ)، وأبو سعيد جعتل بن عاهان بن عمير الرعيني الغساني (ت حوالي سنة 115هـ)، وحيان بن أبي جبلة القرشي (ت 125هـ)، وموهب بن جنى المعافري، وطلق بن حابان الفارسي، وبكر بن سوادة الجذامي (ت 128هـ)، وإسماعيل بن عبيد الأعور (ت 132هـ). وتولى إسماعيل بن أبي المهاجر توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب،¹ فقاموا بنشر العلم الصحيح، وتنشيط الحياة الثقافية بين البربر، فكان عهد هذا الوالي عهد انبعاث النشاط الديني، والحياة الثقافية، والحركة العمرانية، في الكتابيب والمساجد، مما أدى إلى إقبال البربر على الإسلام جملة عندما أدركوا حقيقته، وأنه منحهم حقوقا لم تكن في متناولهم في عهد الرومان والبيزنطيين، فرفع عنهم الجزية، وسمح لهم بالاشتراك في الجيش، وفي تقلد المناصب.² وبهذه الطريقة أسلم البربر في أقل من قرن، ولم يبق في بلاد المغرب إلا أقليات مسيحية.³

يزيد بن أبي مسلم (102-103هـ/720-721م) : توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 101

هـ، وتولى الخلافة الأموية بعده يزيد بن عبد الملك، فبادر إلى عزل إسماعيل بن أبي المهاجر من افريقية، وولى عليها يزيد بن أبي مسلم.⁴ كان هذا الأخير قبل أن يتقلد ولاية افريقية، تقلب في مناصب كثيرة بالعراق، فهو مولى الحجاج بن يوسف، وأمين سره، وكاتبه وصاحب شرطته، وكان يتميز بفضة وكفاءة، ولذلك اعتمد عليه الحجاج في كثير من شؤون الدولة، حتى أنه لما حضرته الوفاة استخلف يزيد على خراج العراق، وكان متأثرا بولي نعمته، وبشخصيته القاسية، وورث منه عزمه ونشاطه في طريقة إدارة شؤون الولاية. فكان الحجاج يفرض على مزارعي العراق الذين اعتنقوا الإسلام دفع الجزية والخراج (ضريبة الأرض) وحتى لا يتهربون من دفع الخراج كان يمنعهم من الهجرة إلى المدينة ويعيدهم إلى قراهم. وعندما قدم إلى افريقية وتولى الحكم فيها، أراد أن يطبق هذه الطريقة المتهورة وسلك مسلكا مماثلا تجاه البربر الذين أصبحوا مسلمين،⁵ حيث "عزم على أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج في أهل العراق فإن الحجاج كان قد وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم

¹ سالم السيد عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت). ص 204.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 104.

³ مارسية جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكال، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991. ص 40.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 213.

⁵ مارسية جورج، مرجع سابق، ص 50.

إلى قراهم ورساتيقيهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام".¹ وهكذا اقتفى يزيد طريق الحجاج، فاستبد مع البربر، وفرض عليهم الجزية، واستخف بهم، واشتد عليهم في جمع أموالهم، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم.² وذكر عنه ابن عذارى أنه "كان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا، فقال: إني رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره "حرسى" ليُعرفوا بذلك من بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد، أسرع لِمَا أمرت به. فلما سمعوا ذلك منه أعني حرسه، اتفقوا على قتله، وقالوا جعلنا بمنزلة النصارى"³، وهذه الطريقة كان يتبعها الملوك المسيحيون مع خدمهم. وأخذ هؤلاء الحراس يترقبون الفرصة المواتية للوثوب عليه، وقد نجحوا في قتله وهو يؤدي صلاة المغرب في مصلاه بعد شهر واحد من ولايته.⁴ وعملهم هذا لم يكن إلا فورة غضب يرجع سببها إلى حاكم مستبد وأرعن. ثم ولوا عليهم قائد الأسطول محمد بن أوس الأنصاري الذي كان قد رجع لحينه من نشاطه الجهادي في صقلية، محملا بغنائم قد أصابها.⁵ وكتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد يقولون "إنا لم نخلع يدا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك"⁶. والظاهر أن الخليفة واجه العاصفة بهدوء، ولم يجد بدا من الإذعان لرغبة البربر، وقبول الأمر الواقع، فوافق مؤقتا -أو على مضض- على تعيين محمد بن أوس الأنصاري. وعندما هدأت الأوضاع واتضح للخليفة أسباب إقدام البربر على قتل ممثله في افريقية، عين عليها بشر بن صفوان.

بشر بن صفوان (103-109هـ/722-727م) : كان واليا على مصر عند مقتل يزيد بن أبي

مسلم، فقدم القيروان، واصطنع مع البربر سياسة تقوم على العدل وحسن المعاملة والمساواة بينهم وبين العرب تهدئة لخواطريهم، فنجح في تهدئة المغرب بحسن سيرته ولينه، وساد البلاد فترة من السلم والهدوء استمرت بعده ودامت ثلاثة عشر سنة.⁷ ويبدو أن الوالي الجديد قد تلقى تعليمات من الخليفة تفيد القيام بتحقيق حول ظروف

¹ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 47.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 208.

³ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 48.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 214؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 209.

⁵ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 48.

⁶ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 47.

⁷ مارسية جورج، مرجع سابق، ص 51؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 209.

اغتيال يزيد بن أبي مسلم، وأسبابه، وضرورة تتبع المتآمرين. ودارت الشكوك حول آل موسى بن نصير؛ لأن معظم الثائرين على الوالي المقتول من موالي موسى بن نصير، ثم بلغه أن عبد الله بن موسى بن نصير وراء المؤامرة التي أدت إلى قتل يزيد، وشهد على ذلك بعض اليهود، فأقام عليه الحجة وثبت عليه التهمة، ثم أمر بقتله. وشمل بعقابه الشديد كل من له صلة ببيت موسى بن نصير، فعذب مواليه، وتتبع أموالهم بالمصادرة.¹ وكان من أول ولاية إفريقية، الذين قربوا أهل العصية، واعتمد في إدارة ولايته على ذوي العصية الكلبية.² وفي سنة 109 هـ خرج بشر بن صفوان في نشاط ثغري بحري في صقلية، وعاد منه بسبي كثير، ولكنه أصيب عند عودته بمرض مات على إثره بالقيروان في شوال سنة 109 هـ.³

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110-114هـ/728-732م) : ولاءه على إفريقية الخليفة هشام بن عبد الملك، وفي عهده احتد الصراع بين القيسية والكلبية في بلاد المغرب، ذلك أن الوالي الجديد كان قيسيا شديداً التعصب لقيسيته بل ومغاليا فيها.⁴ وباشر مهامه بالتعامل على عمال بشر بن صفوان الوالي السابق، فسجنهم، وأغرمهم، وعذب بعضهم، وكان من ضحايا سياسته التعصية عامل من عمال بشر بن صفوان هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الذي كان قائداً شريفاً في قومه وقد قلده بشر بن صفوان عدة مناصب، وولاه بعض الأقاليم في بلاد المغرب، وكان شاعراً فصيحاً فلما عزله عبيدة بن عبد الرحمن ونكل به، كتب أبيات شعر حماسية وبعث بها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، وكانت ذات وقع كبير في بلاطه، مما أدى إلى موافقة الخليفة بسرعة على طلب عبيدة بن عبد الرحمن لإعفائه من ولاية إفريقية، وعين في مكانه عبيد الله بن الجحباب. وإضافة إلى ذلك، فقد كان عبيدة شديداً في معاملته للبربر، فأسرف في غزو قبائلهم وسي نساءهم، وبالغ في التعسف معهم والجور بهم، وقد كان لهذه السياسة الغاشمة أثرها في تقبل البربر لمبادئ الخوارج الذي سيأتي تفصيله فيما بعد.⁵

¹ ابن عبد الحكم، ج 2، ص 215؛ لقبال موسى، ص مرجع سابق، ص 105؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 210.

² لقبال موسى، ص مرجع سابق، ص 105.

³ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 49.

⁴ مجاني بوبة، أثر العرب اليمينية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2009. ص 56.

⁵ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 217؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 211؛ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 57.

عبيد الله بن الحبحاب (116-123هـ/734-740م) : بدأ نشاطه السياسي في مصر وتناهدت به

الرئاسة إلى الولاية على إفريقية. حيث اشتغل كاتباً صغيراً في ديوان الرسائل، ثم تقلب في مناصب الإدارة إلى أن أصبح الرجل الثاني في ولاية مصر، فتقلد فيها منصب عامل خراج، وهي وظيفة سامية وهامة في الدولة، لا يسندها بنو أمية إلا لمن كانت له مكانة خاصة من المخلصين لهم، ويتوفر على الخبرة، وقد أثبت مهارة كبيرة في إدارة شؤون مصر. ونظراً للنجاح الذي أحرزه هناك، عينه الخليفة هشام بن عبد الملك والياً على إفريقية، وهي من أعظم ولايات الخلافة الأموية في عهد بني مروان، وصارت القيروان على عهده عاصمة لإفريقية والأندلس والمغرب كله.¹ وإضافة إلى هذا، كان بارعاً في الفصاحة والخطابة، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها.²

اعتمد ابن الحبحاب في إدارة شؤون ولاية إفريقية اعتماداً كلياً على أبنائه، ومواليه، وذوي العصبية القيسية، خاصة أسرة عقبة بن نافع الفهري. فعين على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، وعلى طنجة، والمغرب الأقصى، ابنه إسماعيل، ووجعل عمر بن عبد الله المرادي مساعداً له، وأرسل حبيبا بن أبي عبيدة الفهري على رأس حملة عسكرية إلى السوس الأقصى،³ "فبلغ أرض السودان، ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه، ولم يدع بالمغرب قبيلة إلا داخلها وأصاب من السبي أمراً عظيماً... ثم رجع سالماً ظافراً. فغزا صقلية وظهر بأمر لم يُر مثله"⁴.

والعجيب أن ما وقع ليزيد بن أبي مسلم لم يتعظ به عبيد الله بن الحبحاب، الذي أظهر كفاية في حكم مصر، وتدبير خراجها، فخيّل إليه، أنه يستطيع السيطرة على شؤون إفريقية بقليل من العناية وبكثير من الحروب الوقائية، ضد مضارب البربر.⁵

وكان عبيد الله قيسياً متعصباً لقيسيته، كما كان متعصباً للعرب عامة على البربر، فجعل يتعسف معهم كما كان يتعسف مع اليمانية.⁶ وظن أنه يمكنه أن يبقى طويلاً على رأس ولاية إفريقية، إذا أجزل العطاء لرجال الدولة في دمشق، وأكثر من الطوائف المغربية التي يستحبها الخلفاء والكبراء ومن ضمنها سببا البربر الجميلات،

¹ الثعالبي عبد العزيز، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990. ص 131.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 51.

³ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 106.

⁴ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 51.

⁵ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 156.

⁶ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 212.

والأدم العسلية. ولا شك أن نشاطه العسكري في بلاد السوس الأقصى،¹ وسياسة التقتيل والتتكيل وسيجي النساء والأطفال، والتلهف على الغنائم التي سلكها مع البربر، لا سيما ضد قبيلة مسوفة الصنهاجية قد أدخلت الاضطراب في المنطقة المغربية لا سيما الجنوبية منها، ونشرت الرعب وجرحت كرامة البربر أجمعين.

وقد كان أبناءه وأصفياءه الذين عينهم على نواحي المغرب قد تشرّبوا اتجاهاته في الحكم، وكانوا على نسجه في النظرة لمسلمي البربر.² وقد أساء هؤلاء العمال السيرة مع البربر واعتبروهم فيئا للمسلمين وعبيدا لهم، وكان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا عامله على طنجة عمر بن عبد الله المرادي،³ الذي "أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، ولما كان الولاة يُخَمِّسون من لم يجب للإسلام. وكان لايسوي بينهم وبين غيرهم من المقاتلة في الغنائم، وقد يجرمهم من أسهمهم بدعوى أن ذلك أخلص للجهاد، أما عند الشدة فكان يجعل مسلمي البربر في المقدمة."⁴ فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد"⁵.

وكان هشام بن عبد الملك يستحب طرائف المغرب ويكتب إلى عامله بطنجة أن يرسل إليه جلود الخرفان العسلية التي تسلخ من جلود سخال الضأن عند ولادتها أي قبل أن تصبح خشنة بنمو الخراف، فيصنعون منها الجباب الصوفية الناعمة، وكان الخليفة يؤثر اللون العسلي، ويطلب من عامله أن يأتيه بها عسلية اللون غير مصبوغة. ولما كان من العسير للغاية التوصل إلى خراف وليدة بهذا اللون العسلي، فقد عمد العامل إلى النعاج الحاملة، فيأمر ببقر بطونها واستخراج أجنحتها بحثا عن هذه الجلود العسلية. وكانت تذبح مائة شاه فرما لم يوجد فيها جلد واحد.⁶ "فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخاله ولا يوجد مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه"⁷. وكان من الطبيعي أن يتعذب صاحب قطع الغنم إذ يرى غنمه تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية

¹ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 217.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 156.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 212.

⁴ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 157.

⁵ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 52.

⁶ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 2013.

⁷ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 47.

الوحشية، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً أمام هذا الظلم والاستبداد. وكان الخلفاء يستحبون أيضاً طرائف المغرب ونسائه، ويبعثون إلى عامل إفريقية بطلبهن، فكان العامل يحرص على إرسال البربريات المسبيات، وهو أمر كان ينكره البربر على عاملهم.¹

ولما كان البربر أهل عزة ونخوة، وشرف، وقد جرح كبرياءهم الوطني، معاملتهم كأناس خاضعين، والتصرف في حريمهم وأموالهم، بغير هدى من كتاب أو سنة، فأرادوا أن يتبينوا وجهة نظر الخلافة، ومدى مسؤوليتها عن هذا الانحراف فكلفوا وفداً منهم، برئاسة ميسرة، سافر إلى دمشق، ليشرح أمام الخليفة هشام شكواهم، فحيل بين هذا الوفد، وبين رؤية الخليفة، ترضية لابن الجحباب، وتغطية لأعماله، ولسياسة ولايته وطمعا في أطفاه الكثيرة، فرجع الوفد يائسا من تفهم الخلافة وعما لها، لحقيقة مطالب المسلمين البربر، وكانت بسيطة ومعقولة، وفي إطار الأحكام الإسلامية لو وجد الحزم وتوفرت النية الحسنة، فمسلما البربر يريدون فقط، أن ينظر إليهم كأهل عهد وأن تكون معاملتهم المالية في حدود ما قرره الإسلام، وينقطع طلب الوظائف الكثيرة والتدخل في شؤون البربر. وفي النهاية، كان الوفد لسان المسلمين في طلب الإصلاح، ومكافحة الجور.² وبعد أن ملوا الانتظار ويئسوا من مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك عادوا إلى إفريقية يقصون على إخوانهم ما لقوه في دمشق من الإخفاق.³ كانت هذه السياسة هي التي أثارت البربر بالمغرب الأقصى فأعلنت طنجة الثورة عام 122هـ/739م، بعد أن فشل وفدهم في إسماع شكواهم إلى آذان الخليفة بدمشق.⁴

1) ثورات الخوارج في بلاد المغرب

وقد هيأت هذه السياسة التي طبقها بعض ولاية بني أمية، الظروف المناسبة لانتشار الأفكار الغاضبة والمناوئة للسلطة سواء في بلاد المغرب أو للسلطة المركزية في دمشق، علما أن بلاد المغرب كانت ملجأ يهاجر إليه من المشرق كل المعارضين السياسيين الذين لم يتمكنوا من تجسيد أفكارهم على أرض الواقع هناك. وهكذا وجد مذهب الخوارج طريقه إلى بلاد المغرب، وتوفرت له الظروف المناسبة لانتشاره بين البربر. فكثر وفود الخوارج إلى

¹ مارسيه جورج، مرجع سابق، ص 51؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 213-214.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 157.

³ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 137.

⁴ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 57.

بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة، وتسلبوا بين البربر، وأخذوا يبثون تعاليمهم بينهم، مستغلين الخصومات القائمة بين العصبيتين اليمينية والقيسية واشتغال الولاة بهذه المنازعات. وأقبل البربر على تعاليم الخوارج ومبادئهم المنادية بالمساواة بينهم وبين العرب، وفتحوا لهم صدورهم واحتضنوه¹. وقد قام الخوارج بدور بارز في تاريخ بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري وأثروا في أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما كانت بلاد المغرب أكثر البقاع تقبلا لعقائدهم وأهلها أكثرهم حماسا لنصرتهم. وبعد اعتناق المغاربة لمذهب الخوارج رفعوا علم الثورة على الأمويين والعباسيين، وانتهى بهم الأمر إلى إقامة إمارتين مستقلتين هما إمارة بني مدرار وبني رستم. فمن هم الخوارج؟ وماهي فرقهم؟ وماهي ظروف إنتقالهم إلى الغرب الإسلامي؟ وكيف تم هذا الانتقال؟

اطلق اسم الخوارج على طائفة من المسلمين خرجوا على علي (رضي الله عنه لما قبل التحكيم²). وعرف الشهرستاني الخوارج بقوله: "كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين؛ أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان"³. وعند ابن حزم لا يتوقف تعريف الخوارج عند الذين خرجوا عن الإمام علي فقط، بل كل من تبنى أفكارهم ودعا إلى معتقداتهم يعتبر خارجيا، "ومن وافق الخوارج من إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبراء والقول بالخروج على أئمة الجور وأن أصحاب الكبراء مخلدون في النار وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون وخالفهم فيما ذكرنا فليس خارجيا"⁴.

وللخوارج ألقاب أخرى عرفوا بها، مثل الألقاب الحزبية، الشراة، المحكمة، المارقة، وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا بالمارقة فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقين من الدين كما يمرق السهم من الرمية⁵.

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 213.

² الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 330هـ))، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990. ج 1، ص 207.

³ الشهرستاني (أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد)، الملل والنحل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008. ص 92.

⁴ ابن حزم الظاهري الأندلسي (456هـ)، الفصل في الملل والهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، (د م)، (د ت). ص 90.

⁵ الأشعري، مصدر سابق، ج 1، ص 206-207.

هناك من يرجع نشأة الخوارج إلى زمن الرسول صلى الله عليه و سلم و يجعل أول الخوارج "ذو الخويصرة"¹ الذي اعترض على الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم حيث ورد في صحيح البخاري² حديثا عن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقسم قسما، اه ذو الخويصرة -وهو رجل من بني تميم- فقال : يا رسول الله اعدل، فقال : "ويلك ومن يعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل" فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال : "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد شيء فيه، ثم ينظر إلى نضبه هو قدحه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس"³، وللحديث عدة روايات.⁴

ومن العلماء من يرى بأن نشأة الخوارج بدأت بالخروج على عثمان بن عفان رضي الله عنه بإحداثهم الفتنة التي أدت إلى مقتله سنة 35 هـ، وقد أطلق ابن كثير على الغوغاء الذين خرجوا على عثمان وقتلوه اسم الخوارج⁵. إلا أنه وعلى الرغم من الارتباط القوي بين ذي الخويصرة والغوغاء الذين خرجوا على عثمان بن عفان وبين الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب فإن مصطلح الخوارج لا ينطبق إلا على الخارجين بسبب التحكيم بحكم كونهم جماعة في شكل طائفة لها اتجاهها السياسي وآراؤها الخاصة أحدثت أثرا فكريا عقائديا واضحا بعكس ما سبقها من حالات.

ويعود ظهور الخوارج إلى أخطر شقاق في الإسلام عقب معركة صفين سنة 37 هـ بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام آنذاك، توقفت الحرب بسبب رفع جيش معاوية المصاحف منادين بتحكيم كتاب الله تعالى هذه الحادثة كانت سببا في انقسام جيش علي بن أبي طالب إلى قسمين قسم مؤيد للتحكيم واخر رافض له وهؤلاء الرافضون للتحكيم هم الخوارج الذين اعتزلوا عليا وبقوا أعداء لمعاوية ونادوا بشعارهم "لا حكم إلا لله"

¹ الشهرستاني، مصدر سابق، ص 93.

² في صحيحه (3414).

³ ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ))، البداية والنهاية، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007. ج 6، ص 286.

⁴ أنظر : الشهرستاني، مصدر سابق، هامش 4، ص 93.

⁵ ابن كثير، مصدر سابق، ج 7، ص 242.

وقد رد عليهم علي بن ابي طالب بقوله "كلمة حق أريد بها باطل". وقد كان الخليفة علي حريصا على إرجاعهم إلى جماعة المسلمين حيث بعث عبد الله بن عباس لمناظرتهم واستجاب له حوالي ألفين منهم ثم خرج علي بن أبي طالب بنفسه لمناظرتهم لكن دون جدوى حيث انفصل الخوارج في جماعة كبيرة قدر عددها ابن كثير بثمانية آلاف وولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ويذكر ابن كثير أنه لما عرض الخوارج الإمارة على عبد الله بن وهب الراسبي قبلها وقال «أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت» وانسحبوا بعد ذلك إلى قرية الحروراء ومنها أخذ الخوارج تسمية الحرورية.¹

ولما اشتدت شوكتهم وذلك بالتحاق الكثير من أتباع علي بن أبي طالب والتحاقهم بجيش عبد الله بن وهب الراسبي الذي احتل موقعا استراتيجيا على الضفة اليسرى لنهر دجلة بمنطقة النهروان ونتيجة لشعورهم بالقوة أخذت حركتهم تزداد تطرفا وتعصبا وكفروا كل من يرى غير رأيهم ولا يتبرأ من علي بن أبي طالب ولم يتورعوا عن قتل الصحابة كقتلهم عبد الله بن خباب وكذلك قتل النساء. فأرسل لهم علي بن أبي طالب بأن يسلموا القتلة لإقامة الحد عليهم فأجابوا "كلنا قتلة" وعقب ذلك وفي 9 من صفر 38 للهجرة كانت موقعة النهروان حيث هزمهم علي بن أبي طالب وقتل زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي وعدد كبير من أصحابه فتفرق بعد ذلك الخوارج وقرروا قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وكان لهم ذلك بقتل علي بن أبي طالب سنة 40 للهجرة 661 للميلاد.²

أما نظريتهم للخلافة فكانت تنص على أن تكون الخلافة باختيار حر من جميع المسلمين، وإذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكم، وليس بضروري أن يكون الخليفة من قريش بل يصح أن يكون من قبيلة قريش أو غيرها ولو كان عبدا حبشيا، وإذا تم اختيار الخليفة أصبح رئيسا للمسلمين ويجب أن يخضع خضوعا تاما لأمر الله، وإلا وجب عزله.³

وينقسم الخوارج إلى عدة فرق أهمها :

أ-الأزارقة : هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد، وكانت هذه الفرقة من أقوى فرق الخوارج وأشدهم شوكة وأكثرهم عددا. وكانوا يقولون بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، ويكفرون علي بن أبي طالب (رضي الله

¹ المصدر السابق، ج 7، ص 312.

² ابن كثير، مصدر سابق، ج 8، ص 16.

³ أمين أحمد، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط 11، القاهرة، 1975. ص 258.

عنه)، وأبا موسى، وعمرو بن العاص. وكان نافع بن الأزرق من أكبر فقهاءهم وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم وقال أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيئوا أحدا من غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم ولا يتوارث الخارجي وغيره وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ودارهم دار حرب ويحل قتل أطفالهم ونسائهم، واستحل الغدر بمن خالفه وكفر القعدة أي الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه ولو كان هؤلاء القعدة على مذهبهم.¹

ب- النجدات : هم إتباع نجدة بن عامر الحنفي، استقلوا عن الأزارقة والسبب في ذلك هو إعلان نافع بن الأزرق البراءة من القعدة عنه بعد أن كانوا على رأيه وسماهم مشركين واستحل قتل أطفال مخالفه ونسائهم وهذا يعني أن النجدات لم يكونوا راضين عن هذا القرار الذي اتخذه نافع بن الأزرق، كان أتباع نجدة بن عامر في الأصل باليمامة مع أبي طالوت الخارجي ولكنهم تركوه وبايعوا نجدة سنة 66 هـ فقوي أمرهم وعظم حتى استولوا على البحرين وحضرموت واليمن والطائف. إن من أهم تعاليم نجدة بن عامر هو أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور وأن الدين أمران معرفه الله ومعرفة رسوله وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور وعظموا جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر. أما نظريتهم حول الخلافة فتنص على إن إقامة إمام أو خليفة ليست واجب شرعا بل هي واجب وجوبا مصلحيا بمعنى أنه إذا أمكن المسلمين أن يتواصوا بالحق فيما بينهم وينفذوه فلا حاجة إلى إقامة إمام.²

ج - الصفيرية : هم أتباع زياد بن الأصفر، خالف الصفيرية الأزارقة في بعض تعاليمهم حيث إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدين والإعتقاد ولم يسقطوا الرجم ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار. وقالوا التقية جائزة في القول دون العمل وقالوا : ما كان من الأعمال عليه حد واقع فلا يتعدى بأهله الاسم الذي لزمه به الحد كالزنا والسرقه والقذف فيسمى زانيا سارقا قاذفا لا كافرا مشركا.³

د - الاباضية : جاء اسم الاباضية نسبة إلى زعيم هذا المذهب عبد الله بن أباض و الذي خرج في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية، فوجه إليه مروان بن محمد عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة. وقيل إن عبد

¹ البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429 هـ))، الفرق بين الفرق، اعتنى بها وعلق عليها، الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط 4، بيروت، 2008. ص 87-90؛ الأشعري، مصدر سابق، ج 1، ص 170.

² البغدادي، مصدر سابق، ص 91-93.

³ الشهرستاني، مصدر سابق، ص 110.

الله بن يحيى الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله وأقواله. قال : إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والكرع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. وحرام قتلهم وسبيهم في السر غيلة، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجّة. وقالوا : إن دار مخالفينهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي. وأجازوا شهادة مخالفينهم على أوليائهم. وقالوا في مرتكبي الكبائر : إنهم موحدون لا مؤمنون.¹

ومن حسن حظ المغرب أنه لم يعرف من فئات الخوارج غير المسلمين مثل الإباضية والصفيرية، وكانت هذه الأخيرة أسبق في الظهور والانتشار بين بربر المغرب الأقصى ثم الأوسط ثم الأدنى.

2) عوامل انتشار النشاط الدعائي للخوارج في المغرب :

1. الاضطهادات العنيفة التي تعرض لها الخوارج في المشرق، والانتصارات الكبرى التي حققها قادة وولاة بني أمية ضدهم مثل الحجاج بن يوسف، والمهلب بن أبي صفرة، دفعت كثيرا منهم إلى التنقل بعيدا عن المشرق، بحثا عن مواطن آمنة يتمكنون فيها من مواصلة حياتهم، ونشر أفكارهم.²
2. انعدام المذاهب والاتجاهات المتحيزة في بلاد المغرب مما جعلها تربة خصبة لزرع آرائهم وبث دعوتهم.
3. الرباط على الثغور والسواحل المغربية من الإسكندرية إلى طنجة واستغلالهم العبادة والحراسة لنشر أفكارهم في سرية.
4. ممارستهم للتجارة وتنقلهم للرحلة والكسب واحتكاكهم بالبربر.
5. انتقال بعض البربر إلى العراق لتعلم أصول الحركة الخارجية في البصرة على يد فقيه الخوارج، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم.
6. انتقال دعاة الخوارج إلى بلاد المغرب وأقدمهم فيها سلمة بن سعد الإباضي، وعكرمة مولى ابن عباس الصفري، وتميزهم بروح المغامرة، والتفاني في سبيل المذهب دون اعتبار الأخطار. وكان سلمة بن سعد يقول : "وددت لو يظهر هذا الأمر، ولا أبالي بعدها أن تقطع عنثي".

¹ المصدر السابق، ص 108.

² عبد الرزاق محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط 2، الدار البيضاء، 1985. ص 29.

7. السياسة الإدارية السيئة التي طبقها بنو أمية، وطريقتهم في معاملة البربر المسلمين، خاصة في عهد يزيد بن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب، حيث فرضوا عليهم الجزية، ومنعواهم من الإقامة في الحواضر، وحرموهم من الغنائم، وفرض عليهم الخمس، واعتبروا في درجة أدنى من العرب الفاتحين ... مما أدى على تدمير البربر، واندلاع الثورة ضد السلطة الأموية.

كانت هذه السياسة هي التي أثارت البربر بالمغرب الأقصى فأعلنت طنجة الثورة عام 122هـ/739م، بعد أن فشل وفداهم في إسماع شكواهم إلى الخليفة بدمشق، وفجر البربر الثورة باسم المذهب الخارجي الصفري. وقد قاد النشاط الصفري في المغرب زعيم بربري يدعى ميسرة الفقير،¹ وهو بربري بتري من مَضْعَرَة وكانوا قد تبنا أفكار الصفرية. وكان ميسرة شيخهم، وتصنفه بعض المصادر بالحقير بينما يصفه أتباعه بالخفير أي المجير، وكان عندهم وجيها ومن ذوي الصلاح والتقوى والعلم. وبما أنه كان مقدّماً في قومه فقد حمل البربر على الخروج عن الطاعة بعد أن عاد خائباً من دمشق. فاستجابوا له عن طواعية ورضاً. وكانت هذه الثورة التي اندلعت بإقليم الريف سنة 122 هـ، في شمال المغرب الأقصى، أول ثورة فيه وفي افريقية في الإسلام.² ومن الظروف التي ساعدت على إعلان الثورة وانتشارها آنذاك :

● بعد المغرب الأقصى عن مركز القيروان.

● انشغال ابن الحبحاب، وتوزع قواته، وإرسال بعضها إلى صقلية.

وأول ما قام به ميسرة بعد أن اكتسب ثقة البربر وتجمعوا حوله أنه سار بهم إلى طنجة. فقتلوا عامل ابن الحبحاب عليها وهو عمر بن عبيد الله سنة 122هـ، ووضع في مكانه رجلاً من الخوارج وهو عبد الأعلى بن جريح الافريقي، وهو رومي الأصل. واقتنع بعد ذلك عدد من المترددين فانضموا إلى الثورة، وزاد عدد الموالين لميسرة الفقير، "وذلك أول فتنة البربر بأرض افريقية".³

¹ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 218.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 52.

³ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 218.

ولما استولى ميسرة على طنجة والمغرب الأقصى بايعه البربر بالخلافة ولقبوه بأمرير المؤمنين؛ لأن الخوارج لا يشترطون في الإمام الأعظم القرشية ... (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي ...)، فاضطرم المغرب نارا، وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتفض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.¹

أمام هذه الأوضاع، قام عبید الله بن الحبحاب بإرسال جيش يقوده خالد بن حبيب الفهري (أقصى ما استطاع أن يجمعه من الجند) وطلب من حبيب بن أبي عبيدة الرجوع من صقلية والتوجه إلى المغرب الأقصى، فسار الجيش حتى عبر نهر الشلف وبقي مرابطا هناك لسببين :

1 - خوفا من انضمام المغرب الأوسط إلى ميسرة

2 - إرهابا لمن قد تحدثهم أنفسهم بالعصيان في المنطقة.

أما خالد بن حبيب فقد سار بجيشه حتى اقترب من طنجة ودار بينه وبين ميسرة قتال شديدا، ولم يحسم الموقف، ورجع ميسرة إلى طنجة منسحبا من الميدان ومترددا في القتال خلافا لما جرى عليه الخوارج من الاستماتة في القتال حتى النصر أو الشهادة، فساءت سيرته في البربر ونقموا عليه فقتلوه متهمين إياه بالانحراف والفرار، وبما أنه أمير المؤمنين فلا يجوز له التنازل أو التحكيم.

عين الخوارج خالد بن حُمَيْدُ الزناتي إماما جديدا عليهم، فقادهم إلى ميدان المعركة واستطاع هذا القائد الصفري بشدته وحماسه أن يحقق الانتصار على خالد بن حبيب ويقتله. ويقول ابن عذارى عن هذه المعركة التي جرت سنة 122هـ: "قتل ابن حبيب ومن معه، حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد، فقتل في تلك الوقعة حماة العرب وفرسانها، وكماثها، وأبطالها، فسميت الغزوة غزوة الأشراف".²

وبعدها انتفض المغرب كله على ابن الحبحاب، فبلغ أهل الأندلس انتصار البربر على خالد بن حبيب، فوثبوا على عامل الحبحاب وهو عقبة بن الحجاج السلوي فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن الفهري، فاختلفت الأمور على ابن الحبحاب، فاجتمع الناس عليه في القيروان وعزلوه. ومن بين الأسباب التي أدت إلى هذه الهزيمة:

¹ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ص 49.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 54.

1 - عدم تنظيم خالد بن حبيب لصفوفه.

2 - تعب رجاله وجنده من طول المواجهة.

3 - نقص الإمدادات عنه.

4 - عدم اشتراك قوات أبيه (حبيب بن أبي عبيدة) في المعركة وبقي يراقب الموقف من تلمسان.

وقد ترتب عن هذه المعركة عدة نتائج منها :

1 - ضعف الروح المعنوية عند المسلمين العرب.

2 - ارتفاع الروح المعنوية بين البربر في المغرب الأقصى.

3 - شق عصا الطاعة في وجه عامل افريقية وضد الخلافة في دمشق.

4 - فشل عبيد الله بن الحبحاب في مواجهة الموقف في المغرب والأندلس مما أدى إلى عزله.

فلما بلغ ذلك الخليفة هشام بن عبد الملك استبد به الغضب وقال : "والله لأغضبن لهم غضبة عربية،

ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي". ثم كتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالقدوم إليه، فعزله عن ولاية

افريقية وعين في مكانه كلثوم عياض القشيري سنة 123هـ.¹

كلثوم بن عياض القشيري (123-124هـ/740-741م): هو من غلاة القيسية، وقد أمده الخليفة

بجيش ضخم، قوامه اثنا عشر ألفاً جندي من الشام، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر، وثلاثة آلاف آخرين

من جند قنسرين، كما انضم إليه في طرابلس حشد هائل من جند طرابلس، وتولى قيادة الجيش ابن أخيه بلج

بن بشر القشيري. وكان هشام قد أوصى كلثوما بأن يجعل الأمر عند إصابته إلى ابن أخيه بلج، ثم إلى ثعلبة بن

سلامة العاملي، وكلاهما من غلاة القيسية.

وصل كلثوم بن عياض إلى افريقية في رمضان سنة 123هـ، ولكنه تنحى عن دخول القيروان، وعامل

بلج بن بشر العرب الأفارقة بجفاء، وقال لهم : "لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلكم"،² فغضب

¹ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 57.

² ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 54.

العرب البلديون من قوله. وكتبوا إلى قائد قواتهم حبيب بن أبي عبيدة وهو بتلمسان مواقف للبربر، يشكون إليه بلجا وکلثوما. فكتب حبيب إلى کلثوم رسالة جاء فيها : "إن ابن عمك السفیه قال كذا وكذا، فارحل بعسکرك عنهم وإلا حولنا أعنة الخيل إليك"¹، فكتب کلثوم يعتذر إليه، ويأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه. فأقام کلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، ومسلمة بن سودة القرشي، وزحف بجيشه إلى تلمسان مارا ببلدة سيبية. ويذكر ابن عبد الحكم أنه استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري،² وعلى الحرب مسلمة بن سودة القرشين ثم رحل من افريقية متجها على طنجة. فقام عكاشة بن أيوب الفزاري، وكان من الخوارج الصفرية، من ناحية قابس، وبعث أخاه له في جمع من البربر فحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سيرت. فاستنجد ابن ميمون بصفوان بن مالك، أمير طرابلس، فقدم لنجدته. فانهمز البربر وتراجعوا إلى قابس، وكان خبر هذه الغزوة قد وصل إلى القيروان. فخرج القائد مسلمة بن سودة القرشي إلى قابس للقضاء على حركة البربر، ولكنه انهزم في جموعه بأحواز قايس، وقتل عامة من خرج معه، وتراجع إلى القيروان حيث تبعته حشود البربر وحاصرته فيها، وازداد بذلك تخرج موقف العرب. ثم خرجت فرقة من العرب إلى جيش عكاشة، فهزمتها، فلحق ببلاد الرمل.³

ولما وصل کلثوم إلى معسكر حبيب بن أبي عبيدة على وادي شلف، استخف بحبيب وأهانته، وأنب بلج وتنقصه، وقال : "هذا الذي يحول أعنة الخيل إلينا". فغضب عبد الرحمن بن حبيب، ودعا إلى المنازلة، وتوترت النفوس توترا يؤذن بالقتال، وانفصل العرب الأفارقة إلى جانب، وانضم إليهم عسکر مصر. وكاد القتال ينشب بين الشاميين والأفارقة العرب، بل إن ابن عبد الحكم وابن خلدون يؤكدان نشوب القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر، ولم يتمكن کلثوم من إقرار الصلح إلا بعد جهد كبير. فتصافى الفريقان، واتحدا فيما بينهم للقاء العدو المشترك.⁴ ولكن هذا الصفاء لم يكن إلا ستارا زائفا يخفي تحته ما كان قائما بالفعل بينهما من انقسام وتغاير. ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله : "فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم مع سوء رأي کلثوم وبلج". ثم زحف کلثوم مع جيوش العرب مجتمعة نحو البربر وكان الخليفة هشام قد أمر کلثوم بأن يستخدم هرون القرني مولى

¹ نفسه.

² ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 218.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 223.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 219-220.

معاوية بن هشام، ومغيثا الرومي مولى الوليد لمعرفتهما بالبلاد، فجعل كلثوم على رجالة افريقية مغيثا، وجعل على خيلها هرون القريني. واشتبك العرب بقيادة كلثوم مع البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي عند بليدة بقدورة الواقعة على وادي سبو، بالقرب من مدينة تاهرت، في طليعة عام 124هـ. ولما رأى مغيث وهرون كثرة حشود البربر، نصحا كلثوم بإقامة خندق يحيط بمعسكر المسلمين، وقال له: "خندق أيها الأمير، وتلوم بالكراديس، واعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم ودراريهم".¹

ويبدو أن كلثوم قد اقتنع بوجاهة رأيهما، وهم بحفر الخندق حول المعسكر، غير أن بلج، وقد ملأه الغرور، قاطعه في ذلك، وكان كلثوم لا يعصي له أمرا، فقال له بلج: "لا تفعل، ولا يركب كثرة هؤلاء، فإن أكثرهم عريان أعزل، لا سلاح لهم". فناشبههم كلثوم القتال، وجعل بلجا ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين، وهرون القريني على خيالة عرب افريقية، ومغيثا على رجالة عرب افريقية، بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام. ويذكر ابن عذارى أن كلثوم "وجه بلجا ليلا ليوقع بالبر، فسرى ليلته، وأوقع بهم عند الصباح، فخرجوا إليه عراة، فهزموه، ووصلوا إلى كلثوم". فاشتد القتال، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسبوا بها المعركة، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص والتراجع، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا في أذناها القرب والأنطاع اليابسة، ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم، فنفرت الخيل واختل مصاف العرب، واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل، وكان ذلك ما يرمي إليه البربر، إذ لم تكن لديهم الخيول تكافئ خيول المسلمين، فاعتمدوا على كثرتهم العددية، وأعملوا في العرب سيوفهم، وبدت أعراض الهزيمة على جيش كلثوم. ثم خالطت خيالة البربر ورجالاتهم كلثوما ورجاله، فاستشهد كلثوم وحبيب بن ابي عبيدة، وسليمان بن أبي المهاجر، وهرون القريني، ومغيث الرومي، وعدد هائل من وجود العرب وانتهت المعركة بإبادة البربر لجيش كلثوم، وأسفرت الواقعة عن هزيمة شنعاء أصيب بها جيش العرب. وركب من نجا من العرب منهزما إلى افريقية وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم، حتى ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش وأسروا ثلثه الثاني، وطاردوا الثلث المنهزم. أما بيح فلم يجد بدا من الفرار هو ومن مقي من فرقتة وعددهم عشرة آلاف، فلاذ بمدينة سبتة، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها، لحصانتها ومناعتها، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها، فأفقرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين، وبذلك قطعوا على

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 224.

العرب المعاش، فجاجوا حتى أكلوا دوابهم، وأكلوا الجلود واشرفوا على الهلاك،¹ ثم عبروا إلى الأندلس في ظروف قاسية.²

ازدادت ثورة البربر في المغرب عنفا بعد انتصارهم على العرب في موقعة بقدورة، وظهر في هذه الآونة زعيمان بربريان هما : أبو يوسف الهواري، وعكاشة بن أيوب الفزاري، واخذ هذان الزعيمان يتهيآن للزحف على القيروان، وأخذت حشودهم تتجمع في منطقة الزاب. ولما بلغ هشاما مقتل كلثوم وانحزام جنوده أمام عصبية البربر التي أثرت فنتتها في الإسلام، ندب إلى افريقية عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي أحبا بشر، فجد إليها السير حتى وصل إلى القيروان في ربيع الأول سنة 124 هـ.³

حنظلة بن صفوان الكلبي (124-127هـ/742-745م) : قلده هشام بن عبد الملك ولاية مصر، وأمدته بجيش ضخم، فخرج من الفسطاط في صفر سنة 124هـ، ووصل إلى افريقية في ربيع الثاني، واستقر بالقيروان، فوجدها مهددة باستيلاء الخوارج الصفرية عليها؛ لأن أبا يوسف الهواري، و عكاشة بن أيوب الفزاري لما علما بوصول حنظلة، زحفا بقواتهما من الزاب في طريقين مختلفين ليصلا إلى القيروان من جهتين ويطوقانها ثم يطبقا عليها من جهتين.

ولكن حنظلة بن صفوان وضع خطة على أساس إحباط محاولة التعاون بين قائدي الصفرية، كما تجمع عرب القيروان ومن فيها من العلماء والصلحاء وخرجوا للقاء الخوارج مدافعين عن مذهب السنة وقاعدته افريقية. فكانت المعركة الأولى بين حنظلة وعكاشة بالقرن حاسمة، حيث انهزم الصفرية وأسر زعيمهم ثم قتل.⁴ ثم تفرغت قوات الخلافة للجيش الثاني، فتمكنت من الانتصار عليه في منطقة الأصنام بالقرب من القيروان، وقتل زعيمهم عبد الواحد بن يزيد. وبعد هذين المعركتين لم تقم للصفرية قائمة في افريقية، فانسحبوا إلى مناطق محدودة في جبال الريف أو في المغرب الأوسط أو في جبال نفوسة في طرابلس.

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 225.

² بوية مجاني، مرجع سابق، ص 62.

³ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 221؛ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 137.

⁴ المصدر السابق، ج 2، ص 222-223.

إن النصر الذي حققه حنظلة على الخوارج، هو الذي حال دون سقوط إفريقية بين أيديهم وانفصالها عن سلطان الخلافة، كما حدث بالنسبة للمغرب الأقصى. فالهزيمة التي لحقت بجيش كلثوم نتيجة سوء القيادة التي أدت إلى صراعات داخل الجيش، سواء على مستوى القيادة أو على مستوى الجند المقاتلين هي التي دفعت بالخوارج إلى نقل عملياتهم العسكرية إلى المغرب الأوسط والأدنى بهدف السيطرة على القيروان وافتكاكها نهائياً من يد الخلافة.¹

إن الانتصار الذي حققه حنظلة على الخوارج، بقضائه على عكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهواري الصفرين، هو الذي أبقى على نفوذ الخلافة الأموية في إفريقية، لكن حنظلة لم ينعم بهذا الانتصار طويلاً حتى زحف عليه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وأخرجه من إفريقية سنة 127هـ/745م، عندما استولت عليها ورفجومة الصفرية نتيجة الفوضى والصراعات بين أفراد العائلة نفسها. فكان عبد الرحمن وخلفاؤه هم السبب في سيطرة الخوارج الصفرية على القيروان، وانتزاعها من الخلافة العباسية، وظلت تحت سيطرة الصفرية ثم الإباضية إلى أن أعاد محمد بن الأشعث الخزاعي نفوذ الخلافة عليها سنة 144هـ/761م.²

عبد الرحمن بن حبيب الفهري (127هـ/745) : ينحدر عبد الرحمن بن حبيب من نسل عقبة بن نافع الفهري الذي فتح إفريقية والمغرب وبنى القيروان، ولما استشهد في موقعة تهودة بالزاب سنة 64هـ، بقي أبناؤه ببلاد المغرب وكان لهم وجاهة بين أهله لمكانة أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله تعالى على يده من الأقطار واختطاطه مدينة القيروان التي هي كرسي الإمارة، فكان ما منح الله أهل المغرب من الإسلام والدين كله في صحيفته فنالوا بذلك شرفاً خاصاً زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية.³ وكان عبد الرحمن قد حضر وقعة بقدورة بين كلثوم بن عياض والخوارج الصفرية، وكان أبوه حبيب قد قتل في هذه المعركة مع كلثوم، فلجأ عبد الرحمن مع بلج إلى سبتة، ثم عبر معه إلى الأندلس في ظروف قاسية، عسى أن يجد لنفسه هناك سبيلاً للوصول إلى الإمارة. ولكن بلج قتل في الفتنة التي اندلعت بين البلديين والبربر وبين الشاميين، فلجأ عبد الرحمن إلى قرطبة

¹ بوية مجاني، مرجع سابق، ص 63.

² المرجع السابق، ص 64.

³ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 52.

ينتظر فرصة للوثوب على الإمارة، غير أن الصراع بين البلديين والشاميين حال بينه وبين الظفر بإمارة الأندلس، خاصة بعد أن عين حنظلة بن صفوان، أبا الخطار أميراً على الأندلس، فيئس عبد الرحمن مما كان يرحوه، وخاف أن يقع في قبضة أبي الخطار الذي كان لا يتردد في القضاء على كل متمرد تائر. فركب سفينة حملته إلى تونس. وكان عبد الرحمن ما يزال متعطشاً للإمارة، ولم يكن يبالي بركوب الصعاب في سبيل نيلها، فنزل بتونس في جمادى الأولى سنة 126هـ/743م، وقام بالدعوة إلى نفسه،¹ وأخذ يجمع الناس حوله مستغلاً في ذلك وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 125هـ/742م، وتلاه موت الخليفة الوليد بن يزيد سنة 126هـ/743م، حيث كان الضعف يسير بالخلافة الأموية للسقوط.²

آثر عبد الرحمن بن حبيب أن يتعاون مع العرب الأفارقة والبربر الزناتيين، فقد كان لا يهمله إلا أن يحظى بتأييد البربر مادام في ذلك سبيلاً يوصله إلى الإمارة، فقد كانت أمه بربرية من جبال الأوراس وربما كان ذلك سبباً في تأكيد افريقيته. ولا شك أن عبد الرحمن كان يشعر بأنه زعيم العرب الأفارقة، فهو من أقدم بيوت العرب الفاتحين الذين استقروا بأفريقية منذ أسس جده الأول عقبة بن نافع مدينة القيروان، وساهم أبوه حبيب بن أبي عبيدة وجده أبو عبيدة بن عقبة بن نصيب وافر في الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.³

زحف عبد الرحمن بمن معه على القيروان يريد حنظلة، وطلب منه مغادرة أفريقية،⁴ فكر حنظلة بن صفوان في الخروج إليه، والزحف لمقاتلته، ولكنه لم يلبث وعدل عن هذا الرأي، ورأى أن يستجيب لطلب عبد الرحمن، وأن يتجنب مواجهته حقناً للدماء، لأنه كان ورعاً لا يريد إراقة دماء المسلمين، ولا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي، فبعث له حنظلة بوفد يدعو للرجوع عن موقفه هذا، فاعتقل عبد الرحمن أعضاء الوفد، وأوثقهم في الحديد حتى يكونوا ضماناً له بعدم محاربة أصحابهم له، وأقبل بهم مع أنصاره الأفارقة، وعسكر بهم في موضع قريب من القيروان وأمهل حنظلة ثلاثة أيام للخروج من المدينة. زهد حنظلة في الإمارة وكره أن يقاتل مسلمين مثله من أجل الاحتفاظ بها، كما آثر أن يحافظ على أعضاء الوفد الأبرياء الذين أرسلهم إلى عبد الرحمن وكانوا مهددين بالقتل. فتنازل عن الإمارة، ثم غادر القيروان سنة 127هـ/745م، متجهاً إلى دمشق. ودخل عبد

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 234-235.

² بوية مجاني، مرجع سابق، ص 64.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 235.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 223.

الرحمن بن حبيب القيروان، ونهى الناس عن تشييع حنظلة.¹ ولما جلس مروان بن محمد بن مروان الجعدي -آخر خليفة أموي- على عرش الخلافة بعث إليه بكتاب يقره على ولاية إفريقية.² ولكن عبد الرحمن ما لبث حتى أعلن استقلاله عن الدولة المروانية لمنع انقسام البربر عن العرب. ومما ساعده على ذلك اشتغال المروانيين بمناهضة الفتن الناشئة في المشرق التي أثارها عليهم الخوارج والعباسيون. ولكن البربر لم يطابقوا العرب في إفريقية على ما كانوا يريدون من تأسيس حكومة إقليمية تنهض بمصلحة البلاد دون نظر إلى تفرقة بين العناصر، بل كانوا يريدون تأسيس حكومة بربرية محضة لا شائبة فيها للعرب.³

لم يمض شهر واحد على إمارة عبد الرحمن بن حبيب حتى تفجرت براكين الثورة في أنحاء المغرب،⁴ حيث ثار عليه عرب إفريقية من اليمانية. ففي تونس قامت ثورة تزعمها عروة بن الزبير الصديقي، وفي الساحل تزعم الثورة ابن عطاف الأزدي، وثار البربر في المناطق الجبلية، والتفت صنهاجة حول زعيم من زعمائهم اسمه ثابت الصنهاجي واستولوا على باجة، وفي القيروان تمكنت قبيلة ورفجومة، وهي إحدى بطون قبيلة نفزة، تحت قيادة عاصم بن جميل من السيطرة على القيروان فترة، وطرد إليها حبيب بن عبد الرحمن الفهري، وقتل نائبه في المدينة، وفي طرابلس ثار عبد الجبار والحارث من هوار، وكانوا على مذهب الإباضية، لقيام إلياس بن حبيب الفهري بقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود التحجبي. فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي عندما خرج يدعوهم إلى السلم، كذلك إسماعيل بن زياد الإباضي فيمن معه من بربر نفوسة، واستولى على قابس.⁵

كان لا بد على عبد الرحمن بن حبيب الذي تشبث بالإمارة أن يعمل على إخماد الثورات. وكان من الصعب على أسرة الفهريين أن تقضي على حركة الخوارج في سائر مناطق المغرب، فبذلت ما أمكن من الجهود لإبعاد خطرهم عن القيروان وبلاد إفريقية. فبعث عبد الرحمن أخاه إلياس للقضاء على ثورتي عروة بن الزبير الصديقي، وابن عطاف الأزدي، وتمكن من القضاء عليهما مستعملا الحيلة والخدعة.⁶

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 237؛ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 65.

² الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 161.

³ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 145-146؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 237-238.

⁴ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ج 2، ص 224-225.

⁵ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 238؛ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 163؛ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 67؛

Gautier E. F., op. cit., p. 265.

⁶ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 61.

وبلغ عبد الرحمن أن ثائرين من الإباضية خرجا عليه بطرابلس اسمهما عبد الجبار والحارث وقتلا من لم
يجبهما من أهل البلد جماعة كثيرة، فسار إليهما بنفسه وقاتلهما، وتمكن من إخماد ثورة الإباضية في ناحية طرابلس
وقابس سنة 131هـ/749م، وأقام بطرابلس إلى سنة 132هـ/749م، وبني بها سور المدينة ثم رجع إلى القيروان.
ولم يطل مقامه بها حتى علم بخروج زناتة بتلمسان واتخاذها قاعدة لأعمال الخوارج، فعبا جنوده وسار إليها سنة
135هـ/753م، وأقام عليها حتى شتت جموع بني يفرن ومغيلة الثائرة بها تحت شعار الصفرية، وافتكها منهم،
وأعاد أهلها إلى الطاعة ثم كر راجعا إلى القيروان. وفي سنة 135هـ/752م، أخرج جيشا إلى صقلية فغزاها ثم
غزا سردينيا، وبعد الانتصار عقد معهما صلحا على الجزية والطاعة. ثم ألق عنهما عائدا إلى افريقية.¹

وبعد مقتل آخر خليفة أموي في دمشق سنة 132هـ/749م، وهو مروان بن محمد الجعدي، انتقلت
الخلافة إلى بني العباس، فخطب عبد الرحمن لأبي العباس السفاح -أول خليفة عباسي- وقدم إليه جماعة من بني
أمية لاجئين. ولما توفي عبد الله السفاح وتولى بعده أبو جعفر المنصور أقر عبد الرحمن على افريقية وأرسل إليه
خلعة سوداء، شعار دولتهم فلبسها، وأرسل إليه عبد الرحمن هدية نفيسة. ولكنه رجع عن بيعته لأبي جعفر
المنصور، وخلع من عنقه طاعة بني العباس.²

ولكن سرعان ما تأزم الوضع السياسي بالقيروان بين عبد الرحمن بن حبيب وأخويه إلياس وعبد الوارث،
بتحريض من بعض الأمراء الأمويين الذين لجأوا إلى المغرب بعد سقوط دولتهم، وأدت هذ الفتنة إلى قتل عبد
الرحمن على يد أخويه سنة 137هـ/755م، ثم قام حبيب بن عبد الرحمن يطالب بثأر أبيه، فقتل عمه إلياس
سنة 138هـ/756م،³ أما عمه عبد الوارث فإنه لجأ إلى ناحية الأوراس، حيث أجاره عاصم بن جميل شيخ
قبيلة ورفجومة البترية، وهم بطن من قبيلة نفزاوة، وكانوا على مذهب الصفرية. وعندئذ رأى عاصم بن جميل
وقومه أن الفرصة سنحت لهم في شأن السيطرة على الموقف بإفريقية، فتظاهروا بحماية عبد الوارث ومن كان معه
من أنصار أخيه إلياس، وبالحركة من اجل مواجهة حبيب بن عبد الرحمن وصدده عنهم وعن أهل القيروان. وبعد
أن هزموا حبيبا وطرده من القيروان، استولوا على المدينة، التي أصبحت في قبضة زعماء الصفرية، فساموا أهلها

¹ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 163.

² المرجع السابق، ص 164؛ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 40.

³ مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 79.

الذل، وانتهكوا الحرمات. ثم توجه عاصم بن جميل إلى قتال حبيب، واستخلف على القيروان عبد المالك بن جعد اليفرنى، فهزمه قرب قابس، ثم انتصر عليه حبيب وقتل عاصم عند أوراس ثم توجه إلى القيروان لاستعادتها من أيدي الصفرية، فخرج عبد المالك اليفرنى للقائه والثأر لعاصم، وانتهت الحرب بقتل حبيب بن عبد الرحمن سنة 140 هـ/758م، وانتهى بذلك حكم أسرة الفهريين في افريقية.¹

وتمادت ورفجومة في عيها وتعسفها بالقيروان، فقد استحل عبد المالك ورجاله، المحارم، وهتكوا الأعراض، وداسوا المقدسات الدينية عندما ربطوا دوابهم في مسجد عقبة وفعلوا المنكرات فيه، فضجر الناس وندموا عما فرط منهم في حق الفهريين.² ولكن سيطرة ورفجومة على القيروان لم تدم إلا حوالي سنة وبضعة أشهر حيث تصدى لهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وهو من الخوارج الإباضيين الثائرين والمتغلبين على طرابلس، فزحف على القيروان مع أتباعه من هواره وزناتة، فهزم عبد المالك بن أبي الجعد، وأخرج منها قبيلة ورفجومة وشردها، واستولى أبو الخطاب على القيروان، ووضع حدا لنشاط الخوارج الصفرية بإفريقية، وعين عبد الرحمن بن رستم عاملا عليها ليقوم بحراستها وتدير شؤونها ابتداء من سنة 141هـ/748م.³ وعاد هو إلى طرابلس لمواجهة جيوش العباسيين. أما الصفريون فبعد انهزام في القيروان وخروجهم منها، نقلوا نشاطهم إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، حيث نجح أحد شيوخهم وهو أبو قرّة الصفري في تكوين إمارة مستقلة بناوحي تلمسان، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من إرساء دعائم دولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى.⁴

3) موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب

خلال الأحداث الأخيرة التي عصفت ببلاد المغرب، وفد على أبي جعفر المنصور بعض عساكر العرب، منهم نافع بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن أنعم، يستصرخونه لإنقاذ افريقية من فساد ورفجومة، كما وفد عليه أيضا جميل السدراتي أحد جنود عبد الأعلى الإباضي الخارجين عليه، فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي

¹ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 41.

² لقبال موسى، مرجع سابق، ص 163.

³ نفسه.

⁴ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 76-77.

على مصر وافريقية، وسير من مصر جيشا بقيادة أبي الأحوص عمر ابن الأحوص العجلي لاسترجاع المغرب،¹ وكان ذلك هو السبب في عودة عبد الأعلى إلى طرابلس بعد تغلبه على عبد المالك بن أبي الجعد. فاشتبك عبد الأعلى مع القوات العباسية في سرت، وهزمهم في سنة 142هـ. فكتب المنصور إلى ابن الأشعث أن يسير بنفسه، فخرج على رأس أربعين ألف مقاتل.² وكان جيش عبد الأعلى يضم عسكرياً من زناتة وهوارة، فتنازعت هاتان القبيلتان، واتهمت زناتة عبد الأعلى بالميل إلى هوارة ومحاباتها، وفارقه جماعة كبيرة من الزناتيين. وبلغ ابن الأشعث تخلي الزناتيين عن عبد الأعلى، فقوي عزمه. ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر، وتباطأ في سيره، وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام، فوصل عيون أبي الخطاب وأخبروه بعودة ابن الأشعث، فتفرق عنه كثير من أتباعه، واطمأن الباكون، فعاد ابن الأشعث مسرعاً، وفاجأ قوات عبد الأعلى على غير استعداد للحرب، وهاجمها، فوضع العباسيون السيوف في الخوارج، وأسفرت الموقعة عن مقتل عبد الأعلى وعمامة أصحابه في صفر سنة 144هـ.³

قبيل هذه الموقعة، كان أبو الخطاب قد أرسل إلى أتباعه في سائر نواحي طرابلس والقيروان يحثهم على الجهاد ضد ابن الأشعث، وبعد وفاته وصل أبو هريرة الزناتي أحد قادة أبي الخطاب في ستة عشر ألفاً من قبيلة زناتة وغيرها، ولكنهم انهزموا أمام الجيش العباسي، وتشقت شملهم. ومن الذين لبوا نداء أبي الخطاب، عبد الرحمن بن رستم الذي تأهب لنجدة الإباضية في طرابلس، ولما وصل إلى قابس، بلغه خبر انهزام أبي الخطاب ووفاته، فحمل ولده وخرج من القيروان، واتجه إلى المغرب الأوسط، عساه يؤسس دولة إباضية جديدة هناك.

أما ابن الأشعث فدخل القيروان، ثم كتب إلى أبي جعفر المنصور يخبره بالانتصار على الإباضية، وشرع يعين عماله على الأقاليم، وقام ببناء سور حول مدينة القيروان سنة 146هـ، ومنها سير جيشاً لمحاربة الإباضية بزويلة وودان، وتمكن من قتل زعيمهم هناك.⁴ ويبدو أن ابن الأشعث قد تمكن من فرض طاعته على البربر، ولم يشأ أن يحارب الإباضية في المغرب الأوسط واكتفى بالانتصارات التي حققها في طرابلس والقيروان، والاستيلاء على افريقية التي كان العباسيون يحرصون على بقائها بين أيديهم، لتكون سداً منيعاً أمام حركة الخوارج في بلاد

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 73.

² نفسه.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 257-258.

⁴ لقبال موسى، مرجع سابق، ص 170.

المغرب.¹ غير أن ابن الأشعث لم ينعم بهذا الانتصار طويلا، فقد كان قيسيا يمينا، ومعظم قادة جيشه مضرية، فناروا عليه، وكثرت الحروب والفتن "ثم فسد عليه جنده بعد ذلك، وتحدثوا أن المنصور كتب إليه يأمره أن يقدم عليه وأنه أبي ذلك. فاجتمع رأيهم على إخراجهم على إخراجهم وتولية عيسى بن موسى الخراساني"²، وهو من عرب خراسان القيسية.³ أدرك ابن الأشعث أنه لا طاقة له بجنده، وأنه أصبح غير قادر على قيادتهم، فاضطر إلى الخروج من القيروان والعودة إلى المشرق سنة 148هـ/765م.⁴ وبعد ثلاثة أشهر من ولاية عيسى بن موسى لإفريقية على غير عهد من الخليفة أبي جعفر المنصور،⁵ يبدو أن هذا الأخير نزل عند رغبة قادة الجند المضرية تفاديا لتفاهم الوضع، الذي من الممكن أن يساعد على عودة الخوارج، فعين واليا مضرية هو الأغلب بن سالم التميمي.⁶

الأغلب بن سالم التميمي (148-150هـ/765-767م) : هو جد بني الأغلب الذين استقلوا بإفريقية على أيام ابنه إبراهيم. دخل إفريقية مع ابن الأشعث سنة 144هـ/761م، وكان أحد قادته البارزين، فولاه على طبنة والزاب، ثم استدعاه أبو جعفر المنصور وولاه ولاية إفريقية لما اشتهر به من الشجاعة والبلاء وحسن الرأي، ولأنه مضرية يرضى عنه المضرية الذين ثاروا على ابن الأشعث.⁷ "ووصله كتاب المنصور بعد كتاب العهد، يأمره بالعدل في الرعية، وحسن السيرة في الجند، وتحصين مدينة القيروان وخذلقتها، وترتيب حرسها ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه، وغير ذلك من أموره".⁸ فاستقامت له الأحوال، ودانت له البلاد بالطاعة، ولكن عهد الطمأنينة لم يطل حتى عاد البربر إلى ثورتهم، فقد بايعت قبيلة زناتة في نفس العام الذي تولى فيه الأغلب ولاية إفريقية رجلا صفريا هو أبو قرعة اليفرنى الذي ضم الصفرية في المغرب الأوسط والأقصى، ونظم صفوفهم، واتخذ من تلمسان قاعدة له في المغرب الأوسط، ومن طنجة قاعدة له في المغرب الأقصى، وأعلن الثورة على الحكم العباسي في القيروان سنة 150هـ/767م، فسار إليه الأغلب، والتقى الخصمان في إقليم الزاب،

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 259.

² النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 40.

³ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 80.

⁴ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 73.

⁵ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 172.

⁶ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 80.

⁷ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 261.

⁸ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 74.

ولكن أبا قرّة فضل التراجع والانسحاب غربا، مطبقا خطة تعتمد على استدراج خصمه إلى المغرب الأقصى موطن الصفرية فيسهل القضاء عليه وعلى أتباعه.¹ وقرر الأغلب اقتفاء أثر الصفرية وضرب معقلهم في تلمسان، وفي طنجة.² ولما سار بجيشه وقادة جنده وأوغل بهم في المغرب الأوسط، أخذوا ينفضون من حوله ويتسللون عائدين إلى القيروان، وكرهوا المسير معه "وقالوا قد هرب أبو قرّة الذي خرجنا إليه"،³ ولم يبق معه إلا نفر قليل من الجنود وكبار القادة.

برز في هذه الأثناء أحد كبار قادته من القحطانية، وهو الحسن بن حرب الكندي، وكان يومئذ مقيما بتونس، وكانت يرنو ببصره إلى الإمارة، وجد هذا القائد في ثورة الصفرية وفي انصراف الجند عن الأغلب فرصة مواتية للثورة عليه، فكاتب الجند ونجح في إيغار قلوبهم وقلوب قادتهم ضده، فاستمالهم إليه ولحق به بعضهم الذين فارقوا الأغلب، وتمكن من الاستيلاء على القيروان من غير مقاومة. وكانت الحرب سجالا بينهما. وانتهت هذه الثورة بقتل الأغلب في إحدى المعارك بسهم طائش سنة 150هـ/767م، فاعتنى الجند بدفنه وسموه الشهيد، أما الحسن بن حرب فقد قتل على أيدي بعض الجند في تونس، ثم حمل جثمانه إلى القيروان وصلب على أبوابها.⁴ لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الأغلب بن سالم، خاف على إفريقية من الخوارج، وانتهى رأيه إلى أن يولي هذه الناحية واحدا من كبار رجاله المشهود لهم بالكفاية، ليخلص إفريقية من مشاكلها السياسية، ويقضي على أسباب الفوضى والاضطراب التي لازمتها طويلا. وقد وقع اختياره على عمر بن حفص بن قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب.

عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة الأزدي (150-154هـ/767-771م) : ينتسب إلى آل المهلب وهم من قبيلة الأزدي في عمان. وعرف بشدة بأسه ومراسه، وبشجاعته المفرطة في ميادين القتال، ولذلك لقب بزمزمرد، وهي كلمة فارسية معناها ألف رجل.⁵ كان عمر بن حفص واليا على السند، ثم أقاله

¹ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 78.

² ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 226.

³ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 74.

⁴ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 26.

⁵ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 261.

الخليفة المنصور، وولاه افريقية بعد أن ثار جند القحطانية على الأغلب بن سالم التميمي وقتلوه.¹ ومعه بدأ عصر المهالبة في افريقيا، وقد استمر مدة خمس وعشرين سنة، تميز فيها بالاستقرار النسبي.² قدم افريقية رفقة فرقة تتألف من خمسمائة فارس، فاجتمع بوجوه البلد فوصلهم وأحسن إليهم،³ ويبدو أنه تمكن من إخماد الفتنة، وتهدئة خواطر الجند، وتسكين الأهالي في القيروان، حيث "أقام بالقيروان ثلاث سنين وأشهرًا من ولايته، والأمور له مستقيمة".⁴

أمر الخليفة أبو جعفر المنصور، عامله على افريقية، ببناء سور وتحصين مدينة طبنة⁵ -قاعدة إقليم الزاب- حتى تكون مركزا لغاراته المقبلة على المغربين الأوسط والأقصى، ويبدو أن الخليفة عهد إليه القضاء على دولة الرستميين بتاهرت، ودولتي الصفيرية في تلمسان وسجلماسة، وتصفية نشاط الخوارج في المغرب إباضية وصفيرية. فاستخلف عمر بن حفص على القيروان ابن عمه حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب، وسار إلى طبنة لتنفيذ أمر الخليفة. فأحس الرستميون بالخطر الذي يتهدد دولتهم. فاتفق عبد الرحمن بن رستم مع أنصاره من الإباضية في طرابلس وجنوب افريقية وتلمسان على الانتفاض، ومحاربة العباسيين، فهزموا حبيب بن حبيب وقتلوه، ومعه جيش طرابلس الذي قدم لمساندته. ثم انتقل البربر إلى طرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب الإباضي، وتمكنوا من سحق قوات العباسيين هناك.⁶ ونتج عن هذه الانتصارات أن "اشتدت الفتنة بإفريقية واشتعل نارها وأتاها أمراء القبائل من كل فج".⁷

ويبدو أن الخوارج إباضية وصفيرية اتحدوا لأول مرة في تاريخ المغرب، وخططوا لهذه الثورة ضد العباسيين؛ لأنهم ثاروا في وقت واحد وزحفوا كلهم لقتال عمر بن حفص، وحاصروه في طبنة،⁸ وكان جيشه لا يتعدى عشرة

¹ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 83.

² مؤنس حسين، معالم، ص 81.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 31.

⁴ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 75.

⁵ طبنة : هي قاعدة إقليم الزاب، في طرف افريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب، وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها. (انظر : الحموي، مصدر سابق، ج 6، ص 251).

⁶ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 265.

⁷ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 75.

⁸ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 85.

آلاف وخمسمائة فارس، بينما زحف الخوارج في اثني عشر جيشاً، على رأسهم أبو قرّة اليفريني، وعبد الرحمن بن رستم وغيرهما من زعماء البربر.¹ ولكن الخوارج الصفرية سرعان ما انسحبوا من الحصار، تاركين الخوارج الإباضية يواجهون مصيرهم مع جيش العباسيين. وتذكر بعض المصادر أن عمر بن حفص لما أدرك أنه أمام جيش لا قبل له به، لجأ إلى الحيلة وسياسة الإغراء بالمال، فتمكن من استمالة بعض قادتهم، ولكنها تختلف في ذكر التفاصيل، مما يجعل هذه الروايات محل شك.² والراجح أن يكون انسحاب الصفرية نتيجة اختلاف وقع مع الإباضية، إذ لم يسبق لهما أن تعاونوا في بلاد المغرب، والشائع عن هذين الفرقتين أنهما دأبتا على الخصومة والعداوة إلى درجة الصراع والتناحر.³

وقد أدى انسحاب الصفرية إلى فشل حصار طنبنة، وانحزام عبد الرحمن بن رستم وتراجعته إلى تاهرت، وعودة أبو قرّة إلى مقره في تلمسان، ولم تقم للصفرية قائمة بعد ذلك. غير أن أبا حاتم الإباضي قدم بجيشه من طرابلس وحاصر مدينة القيروان مدة ثمانية أشهر، ما أدى إلى نفاذ الأقوات داخل المدينة ولجأ الناس إلى أكل الدواب، وبدأ التذمر يظهر على جيش الخلافة.⁴ "واضطرب على ابن حفص أمره، وبلغه أن يزيد بن حاتم بعثه أمير المؤمنين في ستين ألفاً لنصرة القيروان. فقال: لا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار، إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب. وخرج فجعل يطعن ويضرب حتى قتل في النصف من ذي الحجة من سنة 154هـ/771م".⁵

لقد كانت ثورة الخوارج في عهد عمر بن حفص عارمة وشاملة، ومن أشد ثوراتهم ضد الخلافة الإسلامية، لأنها شملت كل خوارج المغرب صفرية وإباضية، من طرابلس إلى المحيط الأطلسي، الأمر الذي جعل عمر بن حفص يدخل في حرب غير متكافئة، إذ كانت قواته محدودة بالنظر إلى الجيوش الضخمة التي ائتلفت لأول مرة

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 226.

² ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 32؛ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 75؛ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 226-227.

³ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 80.

⁴ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 86.

⁵ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 76.

في تاريخ المغرب ضد الخلافة العباسية. ورغم ذلك فقد تمكن هذا الوالي من فك الحصار على طنبنة، ثم مواجهة الخوارج الإباضية عند القيروان، إلى غاية مقتله سنة 154هـ.

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة (155-171هـ/771-788م) : هو ابن عم عمر بن حفص، وكان من أكابر رجال الدولة، واشتهر بدهائه وكرمه وسخائه، وخبرته التي اكتسبها من خدمته الطويلة للخلفاء، حيث تولى لهم ولايات كثيرة كأرمينية والسند وأذربيجان.¹ اختاره الخليفة العباسي المنصور للقضاء على الخوارج الذين سيطروا على افريقية، وعاثوا فيها فسادا، وقتلوا عامل العباسيين فيها عمر بن حفص. وأرسل معه ستين ألف مقاتل كانوا من أفضل جنود خراسان والعراق والشام،² فضلا عن الذين انضموا إليه من جند افريقية من عرب وبربر.³ وخرج أبو حاتم الإباضي بجيشه لملاقاة عدوه خارج القيروان، فالتقى الجيشان في نواحي طرابلس، واشتد القتال بينهما، واستمات أبو حاتم في مدافعة العباسيين حتى قتل هو وأهل نخلته، ثم شرع يزيد بن حاتم في متابعة فلول الجيش المنهزم، "وبث خيله في طلب الخوارج فقتلهم في كل سهل وجبل"،⁴ وأقام شهرا يقتل الخوارج ثم رحل إلى القيروان، وقد وبلغ عدد من قتل منهم ثلاثين ألفا.⁵

وكان يزيد من خيرة ولاية افريقية، إذ قضى على الثورات، وضبط البلاد، وأمن الناس على معاشهم، وأموالهم، وفي عهده بدأت صفحة جديدة في تاريخ افريقية، وظل الهدوء محيما على هذه الولاية.⁶ غير أن الثورات لم تهدأ نهائيا، ولكنها لم تعد بتلك القوة والوحدة التي تميزت بها في العقود السابقة، منها ثورة كتامة بالمغرب الأوسط سنة 156هـ، وثورة هواره بناحية طرابلس، ثم ثورة ورفجومة في طنبنة سنة 157هـ/773م، وأخيرا ثورة الصفرية في بلاد الزاب سنة 164هـ/780م، وتمكن يزيد من التغلب على هذه الثورات وقمعها وقتل قادتها والتتكيل بالصفورية أينما وجدوا في افريقية.⁷

¹ مجاني بوية، مرجع سابق، ص 88.

² النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 46؛ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 183.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 33.

⁴ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 46.

⁵ الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، (د. م.)، 1994. ص 92.

⁶ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 272.

⁷ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 81.

وإذا كان جد يزيد قد قضى على الخوارج في المشرق، فإن يزيد بن حاتم استطاع أن يبدد شمل الخوارج الصفرية في افريقية والمغرب الأوسط، وتمكن من استئصال شأفتهم، وإعادة الاستقرار لهذه الولاية وأبقى على تبعيتها للخلافة العباسية ببغداد. وبعد أن هدأت الأوضاع، التف يزيد إلى الناحية الحضارية، فبنى المسجد الأعظم بالقيروان وجدده، وفي عهده دخل الشعراء، والنحويين والأطباء لبلاد المغرب، كما انتشر فيها المذهب المالكي، ويرجع إليه الفضل في تنظيم أسواق القيروان، فجعل لكل تجارة سوقا خاصا بها ومن القيروان انتقل هذا النظام إلى باقي أرجاء المغرب. وظل يزيد في افريقية والبلاد هادئة، وفي أواخر أيامه أصيب بوعك شديد، توفي على إثره سنة 171هـ/788م.¹

داوود بن يزيد بن المهلب (171هـ/788م) : لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ولده داوود على افريقية، فلما توفي يزيد ظل داوود يقوم بولايتها زهاء تسعة أشهر قضاها في محاربة الإباضية الثائرين عليه، فقد انتفض الإباضية بجمال باجة، وترعمهم نصير ابن صالح الإباضين فسير إليهم داوود جيشا بقيادة المهلب بن يزيد، فهزمه الإباضية، وقتلوا جملة من عسكره، فوجه إليهم داوود جيشا بقيادة سليمان بن يزيد، يتألف من عشرة آلاف مقاتل، ونجح جيشه هذه المرة في تمزيق صفوف الثوار والقضاء على ثورتهم، غير أنه تهاون في أمر إدريس الأكبر الذي استقر بالمغرب الأقصى وأسس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية. وأقام داوود على ولاية افريقية إلى أن قدم إليها عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب من قبل الخليفة هارون الرشيد.²

روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب (172-174هـ/789-791م) : هو أخ يزيد بن حاتم، وكان أكبر سنا منه، وقد تقلد عدة مناصب منها الحجابة لأبي جعفر المنصور في أول أيامه، وتولى للعباسيين معظم ولايات المشرق منها الكوفة والسند وطبرستان، وفلسطين وولايات كثيرة.³

ولما تولى افريقية، كانت بلاد المغرب ساكنة بعد أن قضى يزيد على ثورات البربر فيها، "وركبت ربح الخوارج من البربر من افريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال ... وانحصدت شوكتهم، واستكانوا للغلب

¹ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 93؛ مؤنس حسين، معالم، ص 83-87؛ مجاني بوبة، مرجع سابق، ص 92.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 82؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 273؛ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 187.

³ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 98.

وأطاعوا الدين"،¹ الأمر الذي دفع بعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى طلب الهدنة، فهادنه ووادعه.² وكان روح بن حاتم لما تولى افريقية قد غلبه الضعف وانتابته الشيخوخة، وإذا جلس للناس غلبه النوم من الضعف، ولم يطل عهده بالقيروان، إذ توفي سنة 174هـ/791م.³

نصر بن حبيب المهلي (174-176هـ/791-792م) : كان عاملا على الزاب، ويبدو أن هارون الرشيد ولاه افريقية سرا في أواخر أيام روح بن حاتم، باقتراح من صاحب البريد وجملة من كبار القادة، على أن يتولى الولاية إثر وفاة روح بن حاتم بعد أن ظهر لهم ضعفه وكبره، لأن افريقية ثغر واسع الأطراف، لا تستقيم بغير سلطان قاهر، وذكروا له نصر بن حبيب وحسن سيرته، ومحبة الناس له. غير أن ولايته كانت قصيرة وخالية من الأحداث، وذكرت المصادر أنه كان من أعدل الولاة في افريقية، واستمرت ولايته سنتين وثلاثة أشهر، حيث وافته المنية في سنة 176هـ/792م.⁴

الفضل بن روح بن حاتم (177-178هـ/793-794م) : هو خامس رجل من آل المهلب يتولى أمر افريقية للعباسيين، وهو ابن روح بن حاتم، وقد خرج إلى بغداد بعد وفاة أبيه سعيا للحصول على ولاية افريقية، باعتباره أحق بها من نصر بن حبيب، وظل ملازما لباب الرشيد حتى ولاه إياها، ويبدو أن الخليفة استجاب لطلبه لمكانة أبيه عنده.⁵ وشرع الفضل في تعيين عمال جدد على الأقاليم، فعين ابن أخيه المغيرة بن بشر على مدينة تونس، وهي المدينة الثانية بعد القيروان ولا تقل أهمية عنها. وكان المغيرة غرا أرعنا لا تجربة له بالإمارة والسياسة، فاستخف بالجند وأساء السيرة معهم، وسار فيهم بغير سيرة من تقدمهم، وكان واثقا أن عمه لن يعزله.⁶ فاجتمع الجند وكتبوا إلى الفضل يطلبون منه إقالة ابن أخيه، ولكن الفضل لم يحرك ساكنا، ولم يحاول المغيرة أن يحسن سيرته بل تمادى في غيه. ثم اجتمع الجند وولوا أمرهم عبد الله بن الجارود وهو المعروف بعبدويه، والتف حوله عدد كبير من الساخطين، ثم انصرفوا إلى دار المغيرة فحصره، وقالوا له : ترحل عنا وتلحق بصاحبك

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 228.

² الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 99؛ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 48؛ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ص 228؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 273.

³ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 48.

⁴ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 104-105؛ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 48.

⁵ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 94؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 27؛ مجاني بوبة، مرجع سابق، ص 95.

⁶ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 106.

أنت ومن معك، وكتب عبدويه إلى الفضل كتابا جاء فيه : إنا لم نخرج المغيرة إخراج خلاف عن طاعة، ولكن الأحداث أحدثها فيها فساد الدولة. فولّ علينا من نرضاه وإلا نظرنا لأنفسنا، ولا طاعة لك علينا.¹ ويبدو أن الجند إلى جانب إنكارهم سوء سياسة المغيرة، كانوا ينكرون على الفضل أشياء، فيذكر القيرواني أن : "مع ما في قلوبهم على الفضل من أشياء قد أنكروها، أقلها استبداده برأيه دونهم"²، ويذكر ابن الأثير : "كان الفضل أيضا قد أوحشهم وأساء السيرة معهم بسبب ميلهم إلى نصر بن حبيب الوالي قبله."³ ورغم أن الفضل بن حاتم استجاب لمطالبهم، فعزل ابن أخيه المغيرة بن بشر عن تونس، وأرسل إليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن حاتم المهلبي ومعه بعض القادة، فلما دنوا من تونس، أرسل ابن الجارود بعض رجاله لينظروا في أي شيء قدموا، ولكنهم قتلوا العامل الجديد وأسروا الرجال الذين كانوا معه. وأدى ذلك إلى محاربة الفضل بالقيروان فغلب عليها ودخلها ابن الجارود سنة 178هـ/794م، ثم أمر بإخراج الفضل مع أهله ومن معه من المهالبة، وبعث معهم من يوصلهم إلى قابس، ولكن ابن الجارود طلب إعادتهم، فاسترجع الفضل وهو متوجه إلى قابس، فسجن مع رجلين من أصحابه، ثم دخل عليه الجند فقتلوه في سجنه.⁴ وعندما غضب جماعة من الجند لمقتل الفضل قاتلهم ابن الجارود وهزمهم، ففروا إلى الأريس، وأقاموا على أنفسهم العلاء بن سعيد عامل الزاب.⁵ لما بلغت أخبار ثورة الجند في افريقية إلى الرشيد أوفد إليها يحيى بن موسى، وأمره أن يتقدم إلى ابن الجارود فيتلطف له ويستميله ليعود إلى الطاعة قبل وصول الوالي الجديد هرثمة بن أعين. فتظاهر ابن الجارود أنه مازال على السمع والطاعة لأمير المؤمنين، وكان يعمل على ربح الوقت. ونجح يحيى بن موسى في إقناع جماعة من جند ابن الجارود، ولكن ابن الجارود قاتلهم وهزمهم وقتل قائدهم. غير أن العلاء بن سعيد تمكن من استعادة القيروان من ابن الجارود، وسلمها إلى هرثمة بن أعين، وأما ابن الجارود فقد اعتقل وأودع السجن في بغداد.⁶

¹ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 49.

² الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 106.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 95.

⁴ ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م))، الحلة السيرة، حققه حسين مؤنس، دار المعارف، ط 2، القاهرة، 1985. ج 1، ص 78-79.

⁵ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 95؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 275.

⁶ الثعالبي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 194.

هرثمة بن أعين (179-181هـ/796-797م) : لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب في افريقية، ولي على افريقية هرثمة بن أعين القيسي، وهو يعد من أقطاب الدولة العباسية، وكانوا لا يكلفونه إلا بالمهام العظيمة. أقام هرثمة ببرقة، إلى أن خرج ابن الجارود من القيروان، فهدأ نفوس أهلها، وأقام على الزاب إبراهيم بن الأغلب، وكان هرثمة مولعا بالبناء، فأقام القصر الكبير بالمنستير سنة 180 هـ، وبنى سور مدينة طرابلس من جهة البحر.¹

ولم يلبث هرثمة طويلا حتى ثار عليه كليب بن جميع الكلبي، مع عياض بن وهب الهواري البربري، فأرسل إليهما جيشا كثيفا، وتمكن من إيقاع الهزيمة بهما. ولكن هرثمة لم يرض بالبقاء أكثر من ذلك في افريقية لكثرة ثورات أهلها وتقلب أجنادها، فطلب من الخليفة هارون الرشيد إعفائه من هذه الولاية، فأعفاه وكتب إليه القدوم إلى العراق، فخرج من افريقية في رمضان سنة 181هـ.² وتولى ولاية افريقية بعده محمد بن مقاتل العكي.

محمد بن مقاتل العكي (181-184هـ/797-800م) : هو أخ هارون الرشيد من الرضاة، وكان أبوه مقاتل بن حكيم من كبار القائمين بالدعوة العباسية.³ وتذكر المصادر أن محمد بن مقاتل لم يكن محمود السيرة، حيث قطع أرزاق الجند، وضرب بالسياط أحد فقهاء عصره،⁴ وهو البهلول بن راشد الرعيني، الذي عارضه في إرسال السلاح والنحاس والحديد إلى إمبراطور الروم،⁵ ووعظه، وبهذه التصرفات فقد أثار العامة عليه، وكرهية الجند له، ونفور الرعية منه،⁶ "ولم يلبث أن اضطرب أمره، واختلف عليه جنده".⁷

واجه محمد بن مقاتل ثورتين، الأولى قادها القائد فلاح بن عبد الرحمن الكلاعي في القيروان، بعد أن جمع أهل الشام وخراسان حوله، وولوا عليهم مخلد بن مرة الأزدي، وقد تمكن من إخمادها وقتل قائدها. والثانية قادها تمام بن تميم التميمي في تونس، عامله عليها، وانهمز فيها محمد بن مقاتل، فغادر القيروان مع أهله إلى طرابلس ومنها إلى سرت. استاء عامل الزاب إبراهيم بن الأغلب التميمي من خروج ابن عمه تمام على والي

¹ نفسه؛ مجاني بوبة، مرجع سابق، ص 101.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 89.

³ ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 89.

⁴ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 123.

⁵ المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 212.

⁶ مجاني بوبة، مرجع سابق، ص 102.

⁷ ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 89.

افريقيا الشرعي، فجمع جيشه وسار به إلى القيروان، ففر منها تمام وعاد إلى تونس. فدخل إبراهيم بن الأغلب القيروان، وخطب في الناس خطبة بليغة، أشار فيها إلى أنه قدم إلى القيروان لنصرة محمد بن مقاتل العكي، لأنه الأمير الشرعي على افريقية، ثم كتب إليه يدعو للعودة إلى القيروان. ولكن الناس كرهوا عودته، ومالوا إلى تمام الذي أعاد الكرة وهجم على القيروان من جديد، فخرج إبراهيم بن الأغلب لمقاتلته، فانهمز تمام، وانسحب إلى تونس، فطارده ابن الأغلب، ثم ألقى عليه القبض وأرسله إلى بغداد، فسجنه الخليفة هارون الرشيد سنة 184هـ.¹

كان أهل البلاد والجند قد سئموا حكم ابن مقاتل، وكرهوا سلطته، فاتصلت جماعة منهم بإبراهيم بن الأغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم، وسألوه أن يكتب إلى الخليفة في بغداد ليقره على ولاية افريقية، فكتب إليه في ذلك، وأبلغه أنه مستعد للتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبعثها حكومة مصر كل سنة مساعدة لإفريقية، بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين ألف دينار كل عام إلى بغداد. واستشار الرشيد هرثمة بن أعين، فنصحه بالموافقة على طلب إبراهيم، لكفايته، وحزمه، ومقدرته الحربية في إخماد الثورات والقضاء على الفتن. فكتب له الرشيد عهدا بولاية افريقية في جمادى الثانية سنة 184هـ، فقبل ابن مقاتل العكي عائدا إلى المشرق.²

ومعه ينتهي عصر الولاية في افريقية، ويبدأ مع ابن الأغلب عهد جديد في تاريخ افريقية والمغرب، وتجربة جديدة في نظم الحكم الإسلامية.

¹ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 104؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 278.

² ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 104-105؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 278-279.

1 - الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (160-296هـ/776-908م)

تعتبر الدولة الرستمية أول تجربة لإقامة إمامة إباضية خارجية، والإباضيون من الخوارج، وقد كانوا ينادون دائماً بالدولة المثالية، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية، لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه. وتحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها، إماما يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق الشريعة الإسلامية.¹ والإباضية هي إحدى فرق الخوارج، وتنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي. ويدعي أصحابها أنهم ليسوا خوارج، وينفون عن أنفسهم هذه النسبة. بل إنهم يغضبون كثيراً حين يسمعون أحداً ينسبهم إلى الخوارج، ويبرؤون من تسميتهم بالخوارج ويقولون: نحن إباضية، كالشافعية والحنفية والمالكية، ويقولون: إنهم زُوموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشيَّة، أي التزام كون الإمام من القرشيين. وقد دخل مذهب الإباضية إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وانتشر بين بعض قبائل البربر حتى أصبح مذهبهم الرسمي. وتتفق عقيدة الإباضية مع أهل السنَّة في الكثير، وتختلف معهم في القليل.

لم يستطع عبد الله بن إباض أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضي في المشرق، ولكن أحد تلاميذه، وهو سلمة بن سعيد، ذهب إلى المغرب وتبين له أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضي فيه، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر الشلف. وهذا اليعقوبي يقرر أن "مدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب"، وكل ما يقع إلى الغرب من نهر الشلف كان تحت سلطة الخوارج.² ولم يكن للخلافة العباسية أو ولائها سلطة على إقليم جبل نفوسة الواقع جنوبي طرابلس، وهو منطقة جبلية واسعة وعرة المسالك، كثيرة الزروع، مما جعلها محصنة طبيعياً، وقد كانت هذه المنطقة ملجأً لجماعات من الخوارج الإباضية الذين اعتصموا بها بعد قدومهم من المشرق. ودار صراع طويل بينهم وبين الأمويين، والمهالبة ثم الأغلبة. ومن حسنات الإباضيين في بلاد المغرب، أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري تمكن في سنة 141هـ/759م، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فساداً، عندما استولت عليها

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 114.

² اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ))، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ص 191.

قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طردهم من القيروان، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملا، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة.

غير أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، لاحظ أن بلاد المغرب أصبحت مرتعا وأرضا خصبة للمذاهب والأفكار المعارضة، ولذلك عزم على محاربتها. فأرسل قوة عسكرية يقودها محمد بن الأشعث، وقد تمكنت هذه القوة من الانتصار على الإباضية سنة 144 هـ، واستطاعت أن تخرجهم من القيروان، ثم تقضي على أبي الخطاب عبد الأعلى في جبل نفوسة. ولما رأى عبد الرحمن بن رستم ما حدث لقائده أبو الخطاب، فر مع عدد من أتباعه الإباضيين من القيروان واتجهوا غربا، وعبروا نهر الشلف، حتى وصلوا إلى منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من المغرب الأوسط، واستقروا عند مدينة تاهرت،¹ ولاحظوا أن السلطة العباسية ونظامها لا يمتد إلى هذه المنطقة، وتوجد قبائل بربرية تعيش على بساطتها، وكانت حسنة الإسلام ولكنها كانت في حاجة إلى قائد يوحد بينها ويؤسس منها نظاما سياسيا مستقلا عن طاعة الدول الكبرى، وقائمة على المذهب الإباضي الذي يدعو إلى الإمامة.

عبد الرحمن بن رستم الفارسي الإباضي، تجمع المصادر على نسبه لطبقة الحكام الأكاسرة، لكنها تختلف في التفاصيل.² جده بهرام كان مولى لسيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)،³ وكان أبوه رستم بن بهرام مقيما في المدينة، وقد أتاحت له هذه الإقامة أن يكون قريبا من مولاه أمير المؤمنين.⁴ ولما مات والد عبد الرحمن تزوجت أمه من أحد الحجاج المغاربة الذي أخذها معه إلى بلاد المغرب. ويبدو أنه استقر بالقيروان، وأخذ في بيئتها العلمية الزاهرة على كبار علمائها، ولما أصبح شابا يافعا التقى بسلمة بن سعيد الذي قدم إلى بلاد المغرب يدعو للمذهب الإباضي، فتعلق به، ثم توجه إلى البصرة وانضم إلى إخوانه المغاربة في حلقة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة سنة 135 هـ/752 م، حيث

¹ الجيلاي عبد الرحمن محمد، مرجع سابق، ج 1، ص 220.

² عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 144.

³ البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).

⁴ الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم للنشر والتوزيع، ط 3، الكويت، 1987. ص 76.

قضى خمس سنوات ينهل من حلقاته أصول المذهب وفروعه، ويعد مع إخوانه "حملة العلم المغاربة" مع مشايخ المذهب في البصرة لإقامة "إمامة الظهور"¹ عقب عودتهم إلى بلاد المغرب.²

بعد العودة إلى المغرب سنة 140 هـ/757م، عينه إمامه أبو الخطاب المعافري قاضيا على طرابلس، ثم نأبه في المدينة القيروان، بعد إخراج قبيلة ورفجومة الصفرية منها سنة 141 هـ/758م، ولما قتل أبو الخطاب إمام الإباضيين في المغرب على يد جيش العباسيين الذي كان يقوده محمد بن الأشعث سنة 144 هـ/761م، فر عبد الرحمن بن رستم بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط، باحثا عن سبل النجاة من أيدي العباسيين، وآملا في تأسيس دولة على المذهب الإباضي على غرار الدولة التي أسسها أبو الخطاب في طرابلس.³

بعد رحلة شاقة وعسيرة، استقر عبد الرحمن في مدينة تاهرت، غير بعيد عن الحصن القديم، وتحولت المدينة فيما بعد إلى مركز سياسي وديني لكل إباضية بلاد المغرب.⁴ تقع تاهرت في موقع استراتيجي، فهي محصنة طبيعيا، فمن الصعب الوصول إليها ومن السهل الدفاع عنها. غير أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحا يمكن أهلها من الإباضية في جبل نفوسة، وبالقبائل البربرية في الصحراء.⁵ ولكن تاهرت القديمة كانت صغيرة لا تفي بالغرض المطلوب، فأنشأ تاهرت الجديدة على ضفة نهر غزير المياه وأحاطها بالأسوار، وأنشأ فيها مسجدا جامعاً وأقام إمامة إباضية تحكم على أساس المبادئ الإباضية. إضافة إلى ذلك، فالمكان بعيد عن الخطر العباسي وفي منأى من الضربات البيزنطية كما يمتاز بأراضيه الحصبة ومياهه الوفيرة. كما أن المدينة تقع في قلب منطقة

¹ الإمامة عند الإباضية أربعة: إمامة الظهور وهي واجبة عندما تتوفر شروطها لتأسيس دولة إباضية المذهب، ومن شروطها أن يكونوا بقوة بحيث يستطيعون اختيار حاكم عليهم علنا. وإمامة الدفاع وهي مرحلة بين الظهور والكتمان وتعلن هذه الإمامة عندما يداهم الإباضية من قبل عدو، فيعقدوا الإمامة لمن يمتلك الشجاعة والخبرة العسكرية وتكون له كل الصلاحيات التي يمارسها الإمام في حالة الظهور. أما إمامة الشراء فتكون عندما يخرج إمام بأربعين رجلا فما فوق ويبايعونه على الجهاد في سبيل الله، وأما إمامة الكتمان فهي تعبر عن مرحلة الضعف، وفي هذه المرحلة يركن الإباضية إلى السرية وينتخبون إماما عليهم يكون عادة أعلمهم وأفقههم ويجوزون هنا البقاء تحت حكم غيرهم دون دعوة للثورة. (انظر: بلحاج معروف، مرجع سابق، هامش رقم 15، ص 47).

² عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 145.

³ الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 83-84.

⁴ Lewicki Tadeusz, L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle, in : Cahiers d'études africaines, vol. 2, n°8, 1962. p. 514.

⁵ مؤنس حسين، معالم، ص 116.

تقطنها قبائل بربرية مثل هوارة، ومكناسة، ولماية، ومزاتة، ونفوسة، وكلهم ينتمون إلى المذهب الإباضي.¹ وبعد إنشاء المدينة اجتمع علماء المذهب ثم تداولوا وقالوا: "لا بد لنا من إمامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو تكون مأوى وقرا لإمامتنا، وملجأً لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن إلى ذلك واستحسن رأيهم.²

في سنة 160هـ/776م، انعقد مجلس يضم رؤساء القبائل الإباضية وفقهائها لاختيار إمام يحكمهم، وقد أجمع مشايخ الإباضية على اختيار عبد الرحمن لدينه وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات، بالرغم من وجود رئيس أو رئيسان من كل قبيلة في المجلس، وكلهم أهل للإمامة، فقد كان عبد الرحمن أحد حملة العلم الخمسة إل المغرب، ونائب أبي الخطاب في القيروان، فضلاً عن أنه لا ينتمي إلى قبيلة تمنعه إذا تغير أو تبدل، ومن ثمة سيسهل عزله في حالة انحرافه عن الدين، وارتضته القبائل لتتحاشى تسلط إحداها عليها إذا ما حظي رئيسها بالإمامة.³ كما اشترك في مبايعته إباضية طرابلس، فاتسع سلطانه بين القبائل العديدة التي دخلت في طاعته، وعلى رأسها نفوسة. وبهذه البيعة، أصبح عبد الرحمن أول أئمة الدولة الرستمية التي اشتق اسمها من اسمه. وساد الأمن والسلام ربوع بلاده، إذ كان يسلك في الناس سبيل العدل والإنصاف، وكان لا يستبد برأي، وإنما كان يصطنع أهل الرأي في مجلس الشورى، وانتشرت في المشرق الإسلامي أخباره، فكثرت أنصاره.⁴ لقد راعى الناحيون أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهي:⁵

1. الفضل: ويراد به العدالة، وهي عند الإباضية جماع صفات الكمال الأخلاقي، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس.
2. إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه، شرط أساسي من شروط الإمامة عند الإباضية، ويعرفونه بأنه العلم الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

¹ الباروني سليمان باشا، أئمة وملوك الإباضية، مراجعة محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، 2005. ص 49؛ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 46.

² المرجع السابق، ص 50.

³ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 151.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 461.

⁵ مؤنس حسين، معلم، ص 117.

3. الوصية : ويراد بها إيصاء الإمام القائم بمن يخلفه، ولا تكون هذه الوصية فرضاً ملزماً للاتباع، وإنما هي توجيه، وقد قلدوا في ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضي الله عنهما. وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى. وكان عليه أن يستشيرهم في كل ما يهم الإمامة من الشؤون، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد.

4. ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية في فرض سلطانه على الناس، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لا بد أن يتم على أساس الشورى، أي حرية الرأي والاختيار. فإذا توفى الإمام أو شغل منصبه لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفرًا منهم، ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحدًا منهم إمامًا، والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق، ولا هي ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق.

نجح عبد الرحمن بن رستم في أمد وجيز للغاية في أن يؤسس دولة قوية، هاجم جيرانها، واتصلوا به يطلبون صداقته، ويسعون إلى خطب مودته وموادعته. وهاجر إليها كثير من أهل المشرق والمغرب والأندلس، ونزلوا بها، وقصدها التجار، والكتاب، والعلماء، ورجال الصناعة والفن، وأرباب الحرف من سائر أنحاء العالم الإسلامي. وقد كان لذلك أكبر الأثر في تطور عمرانها، ونمو تجارتها، واتساع مواردها الاقتصادية. وشهد المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم سنوات من الهدوء والأمن لم يعرفها من قبل، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات.¹

امتدت حدود هذه الدولة من تلول منداس قرب غليزان، إلى فرندة وجبال عمور، ومن هناك إلى وادي ميزاب وإلى ورقلة، ومن ناحية الشرق امتدت إلى تيسمسيلت والسرسو، وثنية الحد وإلى قصر البخاري وأعالي وادي الشلف، ومن هناك إلى شرقي الأغواط وتوقرت ووادي ريغ. وعموما فقد بسطت نفوذها في كل المغرب

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 464.

الأوسط ما عدا تلمسان ومنطقة الزاب.¹ وتنضوي تحت حكم الرستميين كل من جزيرة جربة وبلاد الجريد وجبل نفوسة وجنوب طرابلس.²

تجمع المصادر على أن عبد الرحمن بن رستم قد نجح في توطيد أركان دولته، وإرساء دعائمها، وقد كرس جهوده لمواجهة الأعباء الداخلية، والتزم بتطبيق سياسة المهادنة في الخارج. فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولاً أن يكسب لها كل دواعي الأمن والاستقرار. فاتجه بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار، وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبي القاسم الذي تولى أمر الصفرية في سجلماسة سنة 170هـ/786م. ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار بسجلماسة. فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم بمدرار بن اليسع، وكان لهذا الزواج أثره في تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفي دعم علاقة حسن الحوار بين الدولتين. وقد ذهب عبد الرحمن في مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود، حيث رغب في تقوية فرص السلام مع أعداء دولته وهو الوالي العباسي في القيروان روح بن حاتم، فكاتبه يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام 171هـ/787م.³

ظهور الانقسامات المذهبية : دب الخلاف بين الإباضيين بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ/787م، حول طريقة تعيين الإمام، لأن عبد الرحمن كان قد أوصى قبل وفاته بأن يتم اختيار خليفته ستة من شيوخ المذهب، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب. وبعد نقاش طويل انحصر الاختيار بين عبد الوهاب ومسعود الأندلسي، ثم انسحب هذا الأخير. فتولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن الإمامة، وهكذا غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى. فانشق فريق من الإباضية على الإمام الجديد منكرًا مبدأ الوراثة، فنشأت فرقة إباضية جديدة تسمى "النكارية"، أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وفرقة أخرى تسمى "الوهبية" أي أنصار عبد الوهاب.⁴

¹ الجيلاي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 221.

² بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 48.

³ الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 106-107.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 118.

هذه الخلافات المذهبية والسياسية أدت إلى حروب كثيرة بينهم. وأصبحت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة، الذين أقاموا على أنفسهم إماما من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن والنكارية، وانفصلت عنهما جماعات إباضية أخرى.¹

أدوار الدولة الرستمية : يميز المؤرخون بين ثلاثة أدوار مرت بها الدولة الرستمية منذ تأسيسها إلى غاية سقوطها، وهذه الأدوار هي :

الدور الأول : يشمل عهد عبد الرحمن وإبنة عبد الوهاب بن عبد الرحمن، وابنه أفلح بن عبد الوهاب، وهو يمثل سطوة الإمامة وقوتها، وقدرتها على إحباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبي سواء بالقوة كما فعل الإمام عبد الوهاب أو عن طريق السياسة كما فعل أفلح بن عبد الوهاب.²

الدور الثاني : يشمل عهد أبي بكر بن أفلح وإبنة أبي اليقظان محمد، وهو يمثل الصراع العنصري والقبلي، وفيه خفت صوت الإمامة ووهنت قوتها، ونجحت بعض العناصر في اغتصاب السلطة في تاهرت، ولم يستردها البيت الرستمي إلا بتعزيد عناصر أخرى. ولم يجل دون سقوط الإمامة سوى ضعف العصبية من جراء الصراع بينها، وأسلوب الملاينة والموازنة الذي اتبعه أبو اليقظان محمد في موقفه من هذه العصبية.³

الدور الثالث : يشمل الدور الأخير من الحكم الرستمي إمامتي أبي حاتم يوسف بن محمد، واليقظان بن أبي اليقظان، وهو يتميز بتداعي الإمامة واضمحلالها، وتحكم عامة تاهرت في تعيين الأئمة وعزلهم، وطمع الطوائف والفرق غير الإباضية في تقلدها إنهاء للحكم الرستمي الإباضي، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة وأقاليمها الشرقية. كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمي وتدابيرهم المؤامرات والاعتقالات ضد بعضهم البعض لتسلم الحكم. وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بني رستم على يد الدولة العبيدية سنة 297هـ/909م.⁴

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 119.

² عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 155.

³ نفسه.

⁴ نفسه.

العلاقات الخارجية

علاقة الرستميين بالعباسيين: كان العباسيون يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثا شرعيا تركه المويون لهم، وعلى هذا الأساس نظروا إلى الدولة الرستمية المستقلة عنهم نظرة عدااء باعتبار مؤسسيتها قاموا باقتطاع أجزاء من ممتلكات العباسيين. يضاف إلى ذلك ما كان سائدا من عدااء تقليدي بين الخلافة العباسية السنية وبين الإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج. هذا ما يفسر مطاردة ولاية العباسيين بإفريقية لعبد الرحمن بن رستم منذ اللحظات الأولى التي ظهر فيها على مسرح الأحداث في بلاد المغرب، لأنه كان في نظرهم خليفة لأبي الخطاب عدوهم اللدود، لذا حرص محمد بن الأشعث -الوالي العباسي- في القيروان سنة 144هـ/761م، على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتله لأبي الخطاب، ولكن عبد الرحمن تمكن من الانسحاب واللجوء إلى المغرب الأوسط.¹

وقد أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، عمر بن حفص عامله على إفريقية أن يحصن قاعدة طبنة، كخطوة أولى لمواجهة الخوارج في بلاد المغرب، ومنهم الإباضيون الذين تحصنوا بتاهرت، مما دفع بعبد الرحمن إلى تكوين تحالف إباضي صفري يضم سائر القوى المعارضة للخلافة العباسية، وتمكن عمر بن حفص من إلحاق هزيمة ثقيلة بعبد الرحمن بن رستم، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليه. لذا اقتنعت الخلافة العباسية بالاحتفاظ بإفريقية، وترك المغرب الأوسط، ولعل ذلك ما يفسر مسلك الوالي العباسي روح بن حاتم الذي تولى أمر إفريقية سنة 171هـ/787م، إذ حرص على تحسين العلاقات بينه كمثل للعباسيين وبين عبد الرحمن بن رستم، فتمت المودعة بينهما، واستمرت في عهد ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن. وتعتبر هذه المودعة اعترافا رسميا من العباسيين وممثلهم في بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الأوسط.² غير أن هذا التحسن في العلاقات بين الدولتين، ما لبث أن تحرك ثانية وعاد إلى التوتر، حيث لجأ إلى بغداد بعض الثائرين ضد الإمام أفلح، فوجدوا ترحيبا من الخليفة العباسي المأمون، وفي عهد الخليفة الواثق بالله، قبض العباسيون على محمد بن الأفلح الملقب بأبي اليقظان،

¹ الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 187-188.

² المرجع السابق، ص 188-189.

الذي كان يقوم بأداء مناسك الحج في مكة، ونقل إلى بغداد حيث سجن هناك. ثم عادت هذه العلاقات لتتحسن من جديد، في عهد المتوكل على الله الذي أطلق سراح أبي اليقظان وسمح له بالعودة إلى بلاده.¹

علاقة الرستميين بالأغلبية: غلب على العلاقات بين بني رستم والأغلبية طابع العداوة، وتخللتها بعض الفترات من التعايش السلمي. وكان لذلك أسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية، فالأغلبية كانوا سنة، على المذهب المالكي المعروف بعذائه لسائر النحل المتطرفة، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الإباضي، وهو رغم اعتداله يميل إلى تكفير مخالفيه. وفضلا عن ذلك فالأغلبية كانوا عمال الخلافة العباسية وأداتها في إفريقية، ورمز نفوذها الوحيد في بلاد المغرب، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة أصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها. ومن ثم كان على أمراء بني الأغلب أن يناهضوا أئمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الأغلبية باعتبارهم أعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسالمة والحرص على تحاشي أسباب التطاول والصراع.²

ومن الأمثلة عن هذه العلاقات أن الأغلبية نازعوا الرستميين في أملاكهم بنفوسة، فلما استعانت قبيلة هواره على بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196 هـ، ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، زحف عبد الوهاب بحشود هائلة من بربر نفوسة، وضرب الحصار على طرابلس، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادنته على أن يحتفظ الأغلبية بمدينة طرابلس والساحل بينما يضع الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والصحراء.³ وفي سنة 227 هـ، أسس أبو العباس محمد بن الأغلب مدينة تجاور تاهرت سماها العباسية، وكان الغرض منها احتلال المكانة التجارية والعلمية التي كانت تشغلها مدينة تاهرت ومنافستها، فسكت عليه الإمام أفلح، ولم تم بناؤها وثب عليها بجيوشه، وأخلاها من السكان ثم أحرقها، ومع ذلك لم يعمل أبو العباس محمد على محاربة الرستميين.⁴

علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس: نشأت علاقات متينة بين بني أمية في قرطبة وأئمة الرستميين في تاهرت، وقامت بينهم علاقات من الصداقة والمودة، فإن العباسيين الذين كانوا يحاربون بني أمية في الأندلس،

¹ الحريري محمد عيسى، مرجع سابق، ص 190.

² المرجع السابق، ص 196؛ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 187-188.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 156-157؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 482.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 482.

كانوا أيضا أعداء للإباضية في تاهرت، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية، وكانت السفن تتردد بين وهران والمريّة حاملّة البضائع والعلماء والمسافرين إلى كل من الثغرين.¹ وقد كثر وفود أهل الأندلس إلى تاهرت. ومما دفع أمراء بني أمية إلى توطيد علاقتهم بالرستميّين أنه لم يعد أمامهم من منفذ إلى بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط؛ لأنّ المغرب الأدنى (إفريقيّة) قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين، والمغرب الأقصى فيه دولة الأدارسة التي كانت علاقتها بالأمويّين في الأندلس تتسم بالعداء، وبقيام هاتين الدولتين أوصدت جميع المنافذ والسبل في وجه الإمارة الأموية الفتية، وبذلك أصبحت الدولة الرستمية هي الشريان الحيوي الوحيد الذي بإمكانه تغذية تلك الإمارة بالحياة، والتعاون معها سياسياً واقتصادياً وحضارياً. ويذكر الباروني عن أفصح بن عبد الوهاب: "وله مع ملوك الأندلس وغيرهم مواصلة وارتباط ومودة يهادونه بالهدايا النفيسة ويهاديهم بمثلها وله عندهم شهرة ومقام رفيع، ينظرونه بعين المهابة ويرمقونه بأعين الجلال والاعتبار".²

علاقة الرستميّين بالسودان: قامت بين الدولة الرستمية والسودان الغربي والسودان الأوسط، علاقات تجارية كثيفة، حيث كانت تخرج القوافل التجارية من ورجلان (ورقلة)³ محملة بالمنتجات الصوفية والقطنية والكتانية، وأواني الزجاج والفخار، والخزف، والملح، وتعود محملة بالذهب والعاج وجلود الحيوانات. وكانت الطرق إلى بلاد السودان مسلوكة مأمونة بما أبداه أئمة بني رستم من الهمة بمحافظة قوافل التجارة إلى الشرق والغرب والسودان.⁴

حضارة الرستميّين

الحياة العلمية: لقد عرفت الدولة الرستمية في المغرب عددًا غير قليل من الأئمة العلماء الفضلاء، وقد كان أئمتها من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع. "وكان بيت الرستميّين بيت العلم في فنونه من الأصول، والفقه، والتفسير، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو، والإعراب والفصاحة وعلم

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 483.

² الباروني سليمان باشا، مرجع سابق، ص 236.

³ Lewicki Tadeusz, op. cit., p. 532.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 487؛ الباروني سليمان باشا، مرجع سابق، ص 235.

النجوم".¹ وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره، فكان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك، وكان الإمام عبد الوهاب محبا للعلم تواقا إلى المعرفة، وقد صنفا كتبا لم تصل إلينا.² وبعث هذا الإمام بألف دينار إلى إخوانه في البصرة ليشتروا له بها كتبا، فبعثوا له أربعين حملا منها، فلما وصلته نشرها وقرأها حتى على آخرها بأجمعها.³ وكان الإمام أفلح بن عبد الوهاب عالما في الحساب والفلك، كما كان أديبا شاعرا. وإذا لم يكن الإمام أعلم علماء المملكة أو أمهرهم في النقاش فهو ملم إماما عميقا بالمسائل الدينية ولا يتوقف عن التعمق فيها.⁴

ولم يكن هذا الشغف بالعلم يقتصر على الأئمة فقط، ولكن كثيرا من رعاياهم كانوا يبذلون نفس الحماس ابتداء من أفراد عائلاتهم. وكان عامة الناس وبعض من أفراد الشعب يتحمسون لعلم النجوم والفلك، وقد قال فرد من الرستميين: "معاذ الله أن تكون أمة (جارية) لا تعلم منزلة بيت فيها القمر".⁵ وأصبحت تيهرت معدن العلم والأدب ومحط رحال الطلبة، وقد نسب إليها علماء كثيرون في مختلف الفنون، منهم أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز، والشيخ أبو سهل، وأبو عبدة الأعرج، وابن الصغير صاحب أخبار الأئمة الرستميين، وأبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهري.⁶

الحياة الاقتصادية: تحيط بمدينة تاهرت أراضي زراعية خصبة، وقد كانت تلك الأراضي مصدر ثروة لسكان المدينة، كما أن موقع المدينة كفل لها عملية التبادل التجاري بين السلع والبضائع القادمة من الساحل ومن وراء البحار، والسلع القادمة من الصحراء ومن أفريقيا السوداء. وغدت تاهرت أيام الرستميين سوقا كبيرا ومقصدا للتجار الذين جلبهم الأمن الذي عمل الرستميون على استتبابه في البلاد، وسهولة التبادل الذي تقدمه تاهرت.⁷ "واتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقال ليس أحد ينزل من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى

¹ أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر (ت 471هـ))، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حققه إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1982. ص 99.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 488.

³ أبو زكرياء، مصدر سابق، ص 100.

⁴ مارسية جورج، مرجع سابق، ص 131.

⁵ المرجع السابق، ص 132.

⁶ المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقدم محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت). ج 2، ص 79-80.

⁷ مارسية جورج، مرجع سابق، ص 127-128.

لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة ... والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون".¹

الحياة الفنية والعمرانية : نتيجة للإزدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة الرستميين، أقبل سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والمباني الفخمة، خاصة في عصر الإمام أفلح الذي بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها في مضمار الحضارة، فقد "ابتنى القصور واتخذ بابا من حديد وبني الجفان وأطعم فيها أيام الجفان ... وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنين حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجروا الأنهر".²

ويبدو أن فن العمارة الرستمي كان متأثرا بمؤثرات فارسية سواء في تأسيس المدن أو تخطيطها، أو في تشييد المساجد والعمائر والقصور. بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحا في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تاهرت.³ إضافة إلى هذا فقد انتقلت بعض المؤثرات المعمارية السورية (الأموية)، وبعض أشكال الزخرفة المصرية إلى بلاد المغرب.⁴

¹ ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985. ص 31-32.

² المصدر السابق، ص 52.

³ عبد الرزاق إسماعيل، مرجع سابق، ص 301.

⁴ مارسيه جورج، مرجع سابق، ص 133-134.

2 - دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ/788-990م)

هي دولة علوية هاشمية يعود نسبها إلى آل البيت، جدها الأعلى هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت الرسول ﷺ. التحا إدريس، كما هو معلوم، إلى المغرب فرارا من بطش العباسيين. وهي أول تجربة نجح فيها آل البيت في إقامة دولة لأنفسهم، وهي لبست شيعة كما يعتقد البعض، لأن الأدارسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين؛ لأن الشيعة هم أنصارهم، ولا يمكن للعلويين أن يكونوا شيعة لأحد، وقد كان مذهبها سنيا.¹

وقد استمرت هذه الدولة ما يزيد عن القرنين، أي ضعف المدة التي قضتها كل من دولة الأغالبة ودولة الرستميين، وخاضت صراعا قاسيا مع الفاطميين ومع الدولة الأموية في الأندلس. ومع ذلك فقد بقيت دولة صغيرة سواء في مساحتها أو مكانتها أو قوة حكامها، ولكن بفضلها ثبت مذهب السنة والجماعة في المغرب الأقصى، كما كان لها فضل في انتشار اللغة العربية بالمنطقة.

ظروف قيامها : قام العلويون بثورة ضد الخليفة العباسي موسى الهادي (169-170هـ/785-

786م)، وقت الحج سنة 169هـ/785م، برئاسة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن، ولكن الخليفة ضربهم بقوة في واقعة "فخ" (بين مكة والمدينة) وفشل أحفاد الحسن بن علي في إقامة دولة لأنفسهم. ومن نتائج هذه المعركة، أن عددا من العلويين تمكنوا من الفرار إلى أطراف البلاد منهم يحيى بن عبد الله الذي هرب إلى بلاد الديلم جنوبي بحر قزوين. واسعدهم حظا هو إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي تمكن من الوصول إلى المغرب ثم لحق به أخوه سليمان.²

وكان مع إدريس مولى بربري يدعى راشد، فر معه إلى المغرب متنكرين في زي التجار. فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفي شخصيته. وبعد سنتين، أي سنة 171هـ/787م، ظهر الاثنان في طنجة، وأخذ راشد يدعو لأمير علوي يحمل راية الإسلام ويخلص الناس من الظلم والزندقة. ولكنهما لم ينجحا في طنجة حيث زندقة برغواطة ضاربة أطنابها.³

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 123.

² ابن الأثير، مصدر سابق، ج 5، ص 75-76.

³ إسماعيل محمود، الأدارسة (172-375) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991. ص 56.

انتقلا بعدها إلى مدينة وليلي، وهي مركز تجاري ممتاز وسوقا عظيما للقبائل، وهي تقع في منتصف المسافة بين فاس ومكناس، ونظرا لموقعها ونشاطها فهي أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية، وقد نزلها إدريس سنة 172هـ/788م. وكانت هذه المدينة تمثل من جهة أخرى مركز قبيلة أوربة البرنسية التي بدأ فيها إدريس يدعو لنفسه،¹ وبسرعة اكتسب عددا من الأنصار لعدة عوامل:²

1- كان شيوخ أوربة يبحثون عن زعيم يقودهم في ثورة ضد برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي الدولة الرستمية في تيهرت.

2- قرابة إدريس من الرسول صلى الله عليه وسلم كافية لاجتذاب القلوب إليه.

3- تعاطف سكان المغرب مع العلويين بعد مأساة فخ وما وقع لهم من تشريد وقتل.

بعد مدة قصيرة، أصبح إدريس أمير وليلي وزعيم قبيلة أوربة، ثم التحق به عدد من القبائل التي كانت ناقمة على برغواطة، مثل غمارة، زاوارة، سدراتة، نفزة، مكناسة... وبهذه القبائل شكل إدريس قوة اخذت تنتقل في حوض سيباو (سبو) تخضع القبائل أو تتلقى طاعتها وفي أقل من عام امتد سلطان إدريس من تلمسان إلى ريف تامسنا ومن طنجة إلى وادي أم الربيع.³

وفاة ادريس الأول : أثار هذا التوسع والنشاط السياسي انتباه الخليفة هارون الرشيد، وأدرك أن هذه الدولة يمكن أن تشكل خطرا على الخلافة العباسية، لأن أميرها علوي من أهل البيت، ولأهل البيت مكانة في قلوب الناس، خاصة بعد الذي تعرضوا له على أيدي الأمويين والعباسيين، وقيام إمارة علوية في أي رقعة من البلاد الإسلامية، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون.

وتباحث هارون الرشيد مع وزيره جعفر البرمكي أمر إدريس، فتبين لهما استحالة إرسال جيش إلى المغرب لمحاربة هذه الدولة الناشئة، وتقول الروايات أنهما لجآ إلى الحيلة، حيث أرسلوا رجلا يدعى سليمان بن جرير،

¹ إسماعيل محمود، مرجع سابق، ص 57.

² مؤنس حسين، معالم، ص 125.

³ نصر الله سعدون عباس، دولة الأدارسة في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1987. ص 72-76.

دخل في خدمة إدريس وكسب ثقته ثم دس له السم ما أدى إلى وفاته سنة 175هـ/791م¹ وتذكر بعض المصادر أن إبراهيم بن الأغلب هو الذي زود سليمان بن جرير بالسم القاتل.² وربما كانت هذه الحكاية محاولة تفسير وفاة إدريس وهو في عنفوان شبابه وقوته.³

إدريس الثاني : في هذه الظروف تظهر مهارة راشد الذي كان المدير الحقيقي لهذه الدولة ومحور العمل فيها، ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفي ترك إحدى جواريه حاملا وتسمى كنزة. فاجتمع راشد مع رؤساء القبائل وقال لهم : "فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكرا ربيناه، فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تبركا بأهل البيت وذرية النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم من ترضونه وترونها أهلا لذلك".⁴ ولما جاء المولود ولدا سموه إدريس على اسم أبيه، وبايعوه وهو في المهد، ولما بلغ الغلام عشر سنوات بايعوه مرة أخرى سنة 186هـ/802م، واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة. كل هذا لأنه كان عزيزا على شيوخ القبائل أن يضيع السلطان الذي وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوي.

ولم يبدأ إدريس الحكم الفعلي مستقلا بنفسه إلا في سنة 192هـ/808م، بعد ذلك وفد على إدريس عدد من مهاجري العرب من القيروان خاصة ودخلوا في خدمته، ثم خرج من مدينة ويلي وبني مدينة فاس واتخذها عاصمة مملكه ابتداء من سنة 196هـ/811م. ويمكن التمييز بين ثلاثة أطوار مرت بها هذه الدولة :

1. طور التأسيس : الذي اقتزن بعهد إدريس الأول (172-177هـ/793-788م) أي قيام الدولة بالتفاف فريق مهم من البربر حول إدريس، ومبايعة القبائل الكبرى له، حسب التقاليد الإسلامية.

2. طور القوة : ويقتزن بعهد إدريس الثاني وابنه محمد بن إدريس (177-221هـ/828-901م) حيث جرى تدعيم الدولة الناشئة باستحداث عدد من البنيات والمؤسسات. من أهمها : بناء فاس واتخاذها كعاصمة للدولة. ثم تنظيم الإدارة واستحداث بعض النظم الإسلامية كالوزارة والكتابة والقضاء والإمامة. ثم فتح العاصمة الجديدة لتحتضن، فئات مهمة من السكان الوافدين من القيروان والأندلس، وتجريدها من تأثير

¹ ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972. ص 21-23.

² الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص 136.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 128.

⁴ ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 24.

العصبية والطابع القبلي، مما جعل العناصر المختلفة من سكان المدينة تنصهر في وحدة بشرية تمثل، بوجه عام التركيب السكاني الجديد. إضافة إلى بداية إشعاع اللغة العربية من فاس كلغة دين وثقافة.¹

3. طور الإنهيار (221-375هـ) : ترك إدريس الثاني غداة وفاته عدة أولاد منهم الكبار والصغار. وتولى خلافته أكبر أبنائه، محمد بن إدريس، غير أنه اعتبر المملكة التي تركها له أبوه إرثاً لا بد من توزيعه على الورثة. هل استند في ذلك إلى المبادئ الشرعية؟ أم هل استمع إلى نصيحة جدته كنزة كما تذكر بعض المصادر؟ أم هل كان المقصود من ذلك التوزيع هو حضور الدولة الإدريسية بصورة مباشرة في أقاليم مختلفة؟ ومهما كان الدافع، فإن هذا التقسيم كانت له سلبيات وإيجابيات.² فتقسيم المملكة إلى عدة ولايات أدى إلى إضعاف السلطة المركزية ونشوء إمارات إقليمية تنزع بطبيعتها إلى الاستقلال الذاتي على أوسع مدى. وقبل إعطاء مثال على المشاكل التي ترتبت عن ذلك التوزيع، من الضروري إعطاء صورة إجمالية عن التوزيع.

قسم محمد بن إدريس المملكة إلى ما لا يقل عن تسع أقاليم:³

1. محمد بن إدريس فاس وناحياتها.
2. القاسم بن إدريس طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان وبلاد مصمودة وما والاها.
3. داود بن إدريس هواره وتسول ومكناس وجبال غياثة وتازة.
4. عيسى بن إدريس شالة وسلا وأزمور وتامسنا.
5. يحيى بن إدريس البصرة وأصيلا والعرائش إلى بلاد ورغة.
6. عمر بن إدريس مدينة الليكسوس ومدينة ترغة وبلاد صنهاجة وغمارة.
7. أحمد بن إدريس مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا.
8. عبد الله بن إدريس أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة وسوس.
9. حمزة بن إدريس تلمسان وأعمالها.

¹ إسماعيل محمود، مرجع سابق، ص 71-82.

² مارسيه جورج، مرجع سابق، ص 148.

³ ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 51.

وما لبث أن نشب الخلاف بين الإخوة، إذ ثار عيسى بن إدريس، على أخيه محمد، فكلف هذا الأخير أخاه القاسم الوالي على طنجة بالذهاب لمعاقبة الثائر. لكن القاسم رفض القيام بالمهمة. فكلف محمد أخاه عمر بها. فتوجه هذا الأخير الذي كان واليا على غمارة بمشود هائلة من بربر صنهاجة وغمارة، وأمدّه أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قواته مع قوات عيسى وهزمتها، فعزل عيسى عن ولايته، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهذا الانتصار، فولاه على ما فتحه من أعمال عيسى، وأمره بالسير لمحاربة القاسم، فانتصر عليه بظاهر طنجة.¹ والظاهر أن الصلح وقع بعد ذلك بين الإخوة. والجدير بالذكر هو حصول نوع من الاستقرار السياسي داخل الإمارات الإدريسية المنتشرة بأندلس المغرب. فلم تسجل ثورات للسكان ولا معارضة للقبائل. هل يرجع ذلك إلى التقديس الذي حظيت به الأسرة في أعين المغاربة المعاصرين أم إلى أسباب أخرى؟

الملاحظ هو اندماج الأسرة الإدريسية في المجتمع المغربي عن طريق المصاهرة والتطبع بأخلاق أهل البلاد مما جعل السكان في مختلف الأقاليم لا يتعاملون معهم كأجانب ودخلاء، بل يعتبرونهم منهم ويحترمونهم ويضعونهم في الصدارة لشرف نسبهم. ويمكننا أن نعتبر أن احترام الشرفاء كسلوك شعبي بدأ منذ ذلك العهد يتحول إلى مبدئٍ سياسي بعد ذلك بعدة قرون.²

نهاية الأدارسة بالمغرب

في سنة 305هـ/917م، وفي إمارة يحيى أقبال جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله الفاطمي وهدفه إزالة دولة الأدارسة، وانتصر مصالة، ثم ولي على المغرب الأقصى شيخا من شيوخ البربر وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة، وجعله عاملا على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يقمه أميرا على فاس، وكان من الطبيعي أن يطمع موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الأدارسة في دولتهم، وبالفعل تم له ذلك سنة 313هـ/925م، فقام بالقضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النصر. ورغم ظهور زعيم جديد من أحفاد الأدارسة إلا أنه دخل في صراع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس على مصير المغرب الأقصى.³

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 395.

² المرجع السابق، ص 416.

³ السلاوي الناصري، مرجع سابق، ج 1، ص 79-80. مؤنس حسين، معالم، ص 131-132.

3 - دولة الأغالبة في افريقية (184-296هـ/800-909م)

ظروف قيامها : شكلت ولاية افريقية مشكلة بالنسبة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية، فهي بلد بعيد عن مركز الخلافة، تعيش فيه جماعات متحاربة متعادية، بعضهم من أهل السنة، وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم، وبعضهم عرب وبعضهم بربر. وكان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال تلك الولاية، فانتهى رأي هارون الرشيد إلى أن يولي هذه الناحية رجلا من كبار رجاله ذوي الكفاية، ويطلق يده حتى يستطيع ان يخلص افريقية من الفوضى والقلق. ووقع الاختيار على هرثمة بن أعين، وهو صاحب تجربة وحنكة في شؤون الحرب والولايات، ذلك أن ولاية افريقية كانت تعاني من مشكلة أساسية كثيرا ما أرقت الدولة العباسية، وتتمثل المشكلة في عرب افريقية الذين كانوا يتجمعون في المعسكرات في سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة ... وتنافسهم وحرهم بعضهم ببعض، وإعلانهم الحرب على كل وال تعينه الدولة.

كان هدف الوالي الجديد وضع حد لتلك الفتنة التي كان يثيرها أولئك العرب البلديون، وقد نجح في مهمته إلى حد بعيد، حيث تمكن خلال السنتين التي حكمهما (180-181هـ/796-797م)، من إعادة الهدوء إلى افريقية وجدد ما تخرب من موانئ ومدن ومنشآت، وأعاد ثقة الناس في الدولة، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق واهتم ببناء القصور للعباد والزهاد. وبعد سنتين من النشاط رأى هرثمة أنه قد أنهى مهمته في افريقية، وأعاد الأمن للبلاد، ولكن الحقيقة أن افريقية قد أتعبته واشتقت نفسه إلى بغداد، واقترح على هارون الرشيد أن يعين في مكانه على ولاية افريقية إبراهيم بن الأغلب عامله على الزاب.¹

أصل الأغالبة : أول الأغالبة الذين دخلوا افريقية هو سالم بن عقال التميمي. ويعود أصله إلى عرب مصر، وكان من كبار رجال الجيش، وقد كلف بالمسير مع نفر من جند مصر إلى افريقية مع عامل العباسيين على افريقية، وهو محمد بن الأشعث الخزاعي، لمحاربة الخوارج. واستقر عاملا على الزاب، وكان يقطنه عدد كبير من بني تميم، ثم عهد إليه الخليفة العباسي المنصور بولاية إفريقية سنة 148هـ/765م، ولكن سهماً أصابه في حرب الخوارج سنة 150هـ/767م، أدى إلى وفاته فعرف بالشهيد. وكان ابنه إبراهيم صغيراً، لم يتجاوز عمره عشر سنين، ففضى صباه في الدرس والتحصيل في مصر. ولما شب دخل في جند مصر، ثم أتيح له دخول المغرب

¹ البلاذري، مصدر سابق، ص 327.

في ولاية الفضل بن روح فيما بين 177-179هـ / 794-796م، وتوصل بفضل شجاعته وحسن تدبيره إلى تولي منطقة الزاب في ولاية هَرْتَمَة بن أَعِينٍ لإفريقية، ثم قام بنصرة واليها الجديد محمد بن مُقاتِل العكي بعد أن تغلب عليه أحد عماله سنة 181هـ / 798م، وردّه إلى إمارته. ولما علم الخليفة هارون الرشيد بحسن بلائه وإخلاصه للخلافة، جعله والياً على البلاد في مستهل سنة 184هـ / 800م.¹ وأسرة الأغالبة أسرة راقية في مضمار الحضارة، عملت على نشر الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها، أي في إفريقية وصقلية، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور، وشيدوا المساجد والحصون، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون.²

وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً، كان يروم مواصلة التحصيل والتعلم، ولكنه عندما دخل إفريقية انخرط في السياسة واشتغل بها، فجمع التميميين حوله، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب، فأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقربه منه وأعلى مكانته. ولذلك حينما أراد هرثمة العودة إلى بغداد، اقترح على هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب عاملاً على إفريقية.³ فوضع إبراهيم عدة شروط منها:⁴

1. تعيينه على إفريقية بصورة دائمة، لأنه شديد الإخلاص للبيت العباسي، وهو رأس بني تميم.
 2. يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار، ويستغني عن مائة ألف دينار كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لإفريقية.
 3. حرية التصرف داخل ولايته مع تعهده بأن يتصرف كعامل عباسي تابع للخلافة.
 4. أن تكون الولاية في بني الأغلب ما داموا على الطاعة والولاء.
- واشترطت الخلافة العباسية من جهتها شرطين هما :

1. أن تقوم الخلافة بتعيين قاضي القيروان.

¹ إسماعيل محمود، الأغالبة (184-296هـ)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1972. ص 19-27.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 286.

³ البلاذري، مصدر سابق، ص 327.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 95-96.

2. أن يكون للخليفة الحق في عزل الوالي الأغلي، إذا أساء التصرف، بشرط أن تقيم بدله واليا أغلبيا آخر.

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك، تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية سنة 184هـ/800م، وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ إفريقية، من معالمها :

- حكم إفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية.

- استقلال داخلي لبني الأغلب.¹

ويبدو أن الخلفاء العباسيون كانوا يخشون من مطامع الأدارسة، والرستميين، فرضي الرشيد بإقامة دولة الأغالبة في المغرب الأدنى لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الأدارسة في المغرب الأقصى، والرستميين في المغرب الأوسط، وكلاهما كان يتطلع إلى فصل بلاد المغرب عن بقية العالم الإسلامي.

وإذا كان إبراهيم قد حقق غرضه، فإنه لم يتنكر للخلافة، بل وفي لالتزاماته معها. فقد خطب للخليفة على المنابر، ورفع شعار بني العباس، ولم ينقطع عن دفع الإتاوة السنوية، ونقش اسم الخليفة على السكة، وأطلق على حاضرتة الجديدة اسم العباسية. ولم يتوان في الكيد للأدارسة جريا على سياسته في إرضاء الخلافة، ونجح إلى درجة كبيرة في إثارة العراقيين والقلاقل لجيرانه في الغرب عن طريق المكائد والدسائس. فلا غرابة إذا رضيت الخلافة عن حكمه، وساعدته في الأزمات العصيبة التي صحبت قيام الدولة، وأمدته بالأموال ليوطد نفوذه.²

مراحل دولة الأغالبة : ينقسم تاريخ العصر الأغلي في جملته إلى ثلاث فترات هي :

1. فترة التأسيس (184-223هـ/800-838م) : وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وابنيه أبي

العباس وزيادة الله. وتتميز هذه الفترة بكثرة العراقيين والمتاعب التي كانت كفيلة بالقضاء على الإمارة في مهدها. وأهم هذه المتاعب شغب الجند وثوراتهم على الأمراء الأغالبة.

تفطن إبراهيم منذ البداية لخطر الجند وما يمكن أن يحدثه من متاعب، ولذلك بدأ ولايته ببناء مدينة العباسية أو القصر القديم سنة 184-185هـ/800-801م في الجنوب الشرقي من القيروان، واتخذها

¹ النوري، مصدر سابق، ج 24، ص 54.

² إسماعيل محمود، الأغالبة، ص 31.

عاصمة له، ونقل إليها السلاح والعدد، ثم انتقل إليها بأهله وحرمه وعبيده وأهل الثقة من جنده. واتخذها عاصمة لإفريقية ومقراً للإمارة. وكان يقصد بذلك التحرر من تسلط الجند المشاغبين ومدافعتهم، وكان من بين التدابير التي لجأ إليها ليحقق ذلك أنه راح يشتري أفراداً من السودان بحجة استخدامهم في الصناعة تخفيفاً على الناس من أعبائها، لكنه استخدمهم في الجيش ودرهم على حمل السلاح¹. وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني، وكان التميميون قليلين، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى إفريقية أيام الأغلبة ولكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبلية لا تقل عن قواته. فكان همهم الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به. وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين هما: البربر المستعربة، والصقالبة، والسودان.²

ومن الثورات التي اندلعت في عهد إبراهيم بن الأغلب، ثورة حمديس الكندي سنة 186هـ/802م، الذي خرج على الأغلبة والعباسيين في آن واحد ونزع السواد شعار العباسيين، فأرسل إبراهيم أحد قادته لقتاله، فتمكن منه ونكل به وبأتباعه، ثم دخل تونس، وأعاد الأمن إليها. وفي سنة 189هـ/805م ثار عليه أهل طرابلس، وكانت تابعة له، وأخرجوا منها واليه سفيان بن المضاء لسوء معاملته لهم. فأرسل إبراهيم جيشاً أحضر الثوار إلى القيروان، ثم عفا عنهم وأعادهم إلى بلادهم. ومع ذلك فإن الفتن والثورات لم تهدأ في طرابلس، فكانت تهيح بين الحين والآخر.

أما أخطر هذه الثورات على إبراهيم، هي ثورة قائد جيشه ووزيره عمران بن مجالد سنة 194هـ/810م الذي شعر بقوته بعد الخدمات الكبيرة التي قدمها لولي أمره إبراهيم بن الأغلب، وحقداً على إبراهيم على ما وصل إليه من مكانة، فاستولى على القيروان، وغلب على معظم بلاد إفريقية، واستمرت الثورة عاماً كاملاً حتى استعاد إبراهيم سلطته بعد أن دفع عطاء الجند الخارجين عليه، واضطر عمران إلى الفرار إلى بلاد الزاب، ودخل إبراهيم القيروان، فقلع أبوابها، وهدم أسوارها إمعاناً في الانتقام.³

¹ المرجع السابق، ص 32.

² مؤنس حسين، معالم، ص 97.

³ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 56؛ إسماعيل محمود، الأغلبة، ص 33-34.

توفي إبراهيم بن الأغلب سنة 196هـ/812م، بعد أن حكم إفريقية مدة اثنتي عشرة سنة. وكان فقيهاً، أديباً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي ونجدة.¹ وخلفه في الحكم ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (196-201هـ/812-817م) الذي كان يلي طرابلس لأبيه، فأخذ أخوه زيادة الله البيعة له من رؤساء الجند، ثم دخل القيروان سنة 197هـ/812م.

عامل عبد الله سكان البلاد معاملة تنطوي على الكثير من العنت والجور، ولم يصغ إلى نصائح أهل الرأي فيها. وعدّل نظام الضرائب فجعل العشر ضريبة مالية ثابتة، حتى لا يتأثر الدخل السنوي بالخصب والجذب، فسخط الناس عليه، وطالبوا بإلغائها والعودة إلى نظام العشر الذي اعتادوه، كما عامل أخاه زيادة الله معاملة سيئة، وكذلك فعل مع أهل بيته. وكانت وفاته في سنة 201هـ/817م. فتولى الإمارة بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم (201-223هـ/817-837م).²

وقد شهدت دولة الأغلبة في عهده أزهى أيامها، رغم أنه ظل لفترة منشغلاً بإخماد ثورة منصور الطنبذي الذي حاصر القيروان وهدد وجود الدولة، "واضطرت إفريقية نارا، ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبذي أزيمة أمورهم وولوه على أنفسهم"،³ إلا أن زيادة الله تمكن من الانتصار عليه.

ويعد الاستيلاء على صقلية أهم إنجاز حققه زيادة الله ابن الأغلب فقد جهز جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات سنة 212هـ/827م. فاستولى على جزء كبير من الجزيرة، وزحف على عدة مدن فيها.⁴ ومهما قيل عن أخلاق زيادة الله، وما اتبعه من سياسة العنف والقسوة،⁵ فقد كان له مآثر لا يمكن جحودها. فقد ذكر ابن الأبار أنه كان "أفضل أهل بيته وأفصحهم لساناً، وأكثرهم بياناً، وكان يعرب كلامه ولا يلحن".⁶ كما كان سياسياً داهية تمكن من كسب الفقهاء إلى جانبه، وكبح جماح الجند بعناده ومثابرتة، واستمال

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 94.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 95؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 293-294.

³ المصدر السابق، ج 1، ص 100.

⁴ الثعالبي، مرجع سابق، ص 221؛ مؤنس حسين، معالم، ص 100-105.

⁵ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 96.

⁶ ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 163.

البربر إلى جانب الإمارة بدهائه وبصيرته، وحول القوى المناوئة له إلى طاقات استعان بها في الظهور على مسرح الأحداث في البحر المتوسط.¹

2. فترة الازدهار والاستقرار النسبي (226-289هـ/840-902م) : وقد شملت هذه الفترة حكم

عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبي من حيث الملكات، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال افريقية بصورة عامة. ويرجع معظم السبب في ذلك إلى فتح صقلية الذي فتح مجالا واسعا أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على الغنائم، تاركين أمراء بني الأغلب في سلام.

توفي زيادة الله سنة 223هـ/838م بعد ولاية حافلة بمجالات الأعمال والخطوب، استمرت أكثر من إحدى وعشرين سنة، وخلفه في الإمارة أخوه الأغلب أبو عقاب المعروف بجَزْر أو خزرون (223-226هـ/838-841م) وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين تولوا الإمارة على التوالي بعده، وأحسن سيرة من أخويه، فقد أجزل للعمال الأرزاق والصلات الكثيرة وتمتعت البلاد في زمنه بالأمن والاستقرار، بفضل الإجراءات التي اتخذها، فقد ألغى الضريبة الثابتة، وأعاد ضريبة العشر، وحرص على دفع عطاءات الجند في مواعيدها المقررة، وكف أيدي عماله عن التطاول على أموال الناس والمظالم بزيادة رواتبهم، ودفعها لهم في أوقاتها، كما منع صنع النبيذ والخمر في القيروان، وعاقب على بيعه وشربه. ولم يعكر صفو الأمن في عهده إلا حركة الخوارج في إقليم الجريد فيما بين مدينتي قفصة وقسطنطيلية (توزر) الذي تسكنه قبائل لواته وزواغة ومكناسة، فاضطر إلى إرسال جيش لقتالها سنة 224هـ/838م. وحقق بعض الإنجازات العسكرية بالاستيلاء على بعض حصون «صقلية» وهزيمة أسطول روميّ جاء لمحاصرة الجزيرة، وتوفي أبو عقاب سنة 226هـ/841م، بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً وكان في الثالثة والخمسين من عمره، وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.²

كان أبو العباس محمد (226-242هـ/841-856م) من أطول أمراء الأغالبة عهداً، ولم يكن على شيء من العلم والدين، ولكنه كان مظفراً في حروبه. شاركه أخوه أحمد أمور الحكم في بدء عهده ثم خرج عليه وحاول أن يستقل بالحكم سنة 231هـ/844م، إلا أن محمداً كان له بالمرصاد فاستعاد سلطانه منه.

¹ إسماعيل محمود، الأغالبة، ص 43.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 307-308.

كانت أوضاع البلاد مستقرة في عهد محمد، ولم يعكر صفوها إلا بعض الاضطرابات التي قام بها قواد الجند في الزاب بقيادة سالم بن غلبون، وفي تونس بقيادة عمر بن سليم التحجبي الذي تفاقم أمره. وكان عصره عصر عظماء العلماء العبّاد مثل أبي محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت227هـ/842م)، والبهلول بن عمر بن صالح (ت231هـ/846م)، والإمام سحنون بن سعيد (ت240هـ/854م) الذي تولى القضاء سنة 233هـ/847م، والذي يعود إليه نشر المذهب المالكي في إفريقية بفضل كتابه المعروف بالمدوّنة، إلى جانب أعمال عمرانية متعددة. أما عن السياسة الخارجية في عهد محمد بن الأغلب فأهمها استمرار الفتوح في صقلية، والاستيلاء على مناطق واسعة من قلورية (كلايرية) في جنوبي إيطالية حتى قارت قواته روما.¹

توفي محمد بن الأغلب سنة 242هـ/856م بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، تاركاً الملك لابن أخيه أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب (242-249هـ/856-863م)، وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم، وأرفقهم بالرعية، مع دين واجتناب للظلم على حداثة سنه، فانصرف إلى أعمال البر والخير، وجعل على قضاء القيروان أبا الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروفة. وكانت مدة حكم أبي إبراهيم أحمد هادئة، لم يعكر صفوها إلا اضطراب الأوضاع في منطقة طرابلس. أما عن الفتوح في صقلية، فقد كان مظفراً في حروبه فيها، فاستولى على قصر يان (كاسترو جيوفاني)، وهي من مدن صقلية المهمة، وكان للخليفة العباسي نصيب في مغانمها، مما يشير إلى أن الدولة الأغلبية كانت ما تزال تعترف بسيادة الخلافة العباسية، على الضعف الذي أصابها.²

لم يطل حكم أحمد، فقد توفي سنة 249هـ/863م، وعمره ثمان وعشرون سنة، وخلفه في الإمارة أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني (249-250هـ/863-864م)، الذي كان عاقلاً حليماً حسن السيرة، جميل الأفعال، ذا رأي ونجدة وجود، نظم أمور صقلية، وأقر حاكمها الذي كان على عهد أخيه، ولم تقم ثورات في الداخل في عهده القصير، إذ حكم سنة واحدة وخلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو الغرائيق (250-261هـ/864-875م)، وكان أبو الغرائيق صغير السن حين تولى الإمارة إلا أنه كان حسن السيرة في الرعية جواداً، غلبت عليه اللذات والشراب والميل إلى الطرب والاشتغال بالصيد، ولاسيما صيد الغرائيق، فلقب بها،

¹ الثعالبي، مرجع سابق، ص 230-233.

² ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 112-113.

بنى قصرًا في موضع السَهْلَيْن يخرج إليه لصيدها، وأنفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب وبدد أموال الدولة على لهوه فلم يترك لخلفه إلا خزانة فارغة. إلا أن حروبه في صقلية كانت مظفرة تخللتها بعض الانتكاسات، كما استطاع إعادة فتح جزيرة مالطة سنة 261هـ/874م، وأسر ملكها، بعد أن كانت قد خرجت من يده سنة 255هـ/869م¹.

لم تكن علاقات أبي الغرائق جيدة مع الدولة الرستمية والقبائل الخاضعة لها، مما اضطره إلى إرسال جيش كبير لقاتلها بقيادة أبي خفاجة محمد بن إسماعيل، وتمكن هذا الجيش من تحقيق الانتصار في البداية، ولما اندلعت الحرب من جديد، انتهت المعركة بكارثة لجيش الأغالبة، فقتل قائد الجيش وجماعة من كبار قادته وكثير من جنده².

3. فترة التدهور (289-296هـ/902-909م) : توفي أبو الغرائق سنة 261هـ/879م وقد حكم

إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف، وعاصر من الخلفاء العباسيين، المستعين والمعتمد والمهتدي والمعتمد، وأقره كل منهم على ولايته. وخلفه في الحكم ابنه أبو عقاب الأغلب وكان صغيراً فتولى عمه إبراهيم بن أحمد أبو إسحق الوصاية عليه، وحلف الأيمان على حسن الوصاية، ولكنه حنث بأيمانه واغتصب الولاية لنفسه³. ويعتبر حكم إبراهيم بن أحمد (261-289هـ/875-902م) بداية التدهور، وكان رجلاً غريب الأطوار، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسي، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد، وانتهت حياته مجاهداً في جنوبي إيطاليا⁴.

استقر إبراهيم بن أحمد في القصر الجديد بمدينة رقّادة، التي بناها، وحصل على بيعة مشايخ أهل القيروان ووجوه أهل إفريقية وجماعة من بني الأغلب، وكان حكمه من أطول عهود أمراء الأغالبة. بدأ عهده بكف الظلم ونشر العدل، وكان يجلس بنفسه للمظالم في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين من كل أسبوع. لقي إبراهيم بن أحمد متاعب من الطولونيين جيرانه في مصر، منذ أن فكر العباس بن أحمد بن طولون بالاستقلال عن والده، وتأسيس إمارة له في برقة وطرابلس وما يحتله من المناطق التابعة للأغالبة سنة 265هـ/878-879م. وإضافة

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 114-116.

² النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 68.

³ ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 171-172.

⁴ مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 106.

إلى هذا الاضطراب الذي حدث في طرابلس فإن اضطرابات أخرى حدثت في تونس وبلاد الزاب، فقد ثارت على إبراهيم قبيلة هواره، وقبيلة لواته في باجة سنة 268هـ/ 881-882م ولكنه قمعهما بقسوة متناهية. كذلك كانت حروب إبراهيم في صقلية ناجحة، ففتح سرقوسة وطبرمين. واعتمد في جيشه على السودان، فاشترى أعداداً كبيرة منهم، وأحسن تدريبهم، وكساهم الكساء البديع، وكانوا ساعده في الحروب، وأظهروا من الشجاعة والقوة ما لا يوصف، وبعد أن اطمأن إليهم سعى إلى التخلص من الجند الصقليين.

تبدل مزاج إبراهيم بن أحمد نحو القسوة الدموية في المدة الأخيرة من حكمه، فكان يقمع الثورات بعنف، ويعمل على التخلص من مسببها، بأساليب دموية، وشدد قبضته على البلاد فعهد إلى أبنائه بولاية الأقاليم، وجعل مركزه بين رقادة وتونس. ودبت في نفسه الريب من رجال الدولة والمقربين فراح يعمل على تصفيتهم بطريقة سوداوية، ومن ذلك ما قام به سنة 280هـ/893م من الإيقاع برجال قلعة بلزمة جنوب غربي باغاية، وهم من القيسية، فكان ذلك المسمار الأول في نعش الدولة الأغلبية، إذ عم الاضطراب أنحاء البلاد. وأدى عنف إبراهيم وقسوته وسوء فعله إلى غضب أهالي القيروان وسخطهم عليه، فشكوه إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله ويطلبون عزله. ولكنه تنبه لنفسه، وأحس بقرب نهاية حكمه. ويبدو أن الذي نبهه هو الخطر الفاطمي ففي سنة 280هـ/893م، دخل أبو عبد الله الشيعي داعي دعاة الفاطميين إلى منازل كتامة، وثبت أقدامه فيها، ثم بدأ يغير على بلاد الأغالبة، فخاف إبراهيم بن أحمد، وعاد إلى رشده، وأصلح من أمر نفسه، واجتهد في لم شعث إمارته.¹ فاعتزل الحكم سنة 288هـ، واستقام ولبس الخشن من الثياب، وأخرج من في سجونته، ورد المظالم، وأسقط المكوس، وأخذ العشر بدلاً من الضريبة الثابتة، وترك لأهل الضياع خراج سنة سماها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالاً عظيمة، ليوزعوها على الفقراء والمساكين، ثم استقر بعد ذلك في صقلية مجاهداً حتى وفاته سنة 289هـ/902م.²

تولى الإمارة بعد إبراهيم ابنه أبو العباس عبد الله (289-290هـ/902-903م) وكان في صقلية حين تنازل له أبوه عن الإمارة، ويمكن عدّ عهده القصير استمراراً لعهد والده. وكان ساعد أبيه الأيمن في حروبه في مختلف الأقاليم، ولاسيما في قيادة الجيوش في صقلية، كما كان شجاعاً عالماً بالحرب، حسن النظر في الجدل.

¹ مؤنس حسين، مرجع سابق، ص 107.

² ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 172-174؛ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 116-120.

أعاد النظر في أعمال أبيه، وقام بتغييرات في ولاية الأقاليم. ذكر المؤرخون أن المدة القصيرة التي حكمها نسخت العذاب الذي كان سائدا في عهد أبيه، فأظهر التقشف، ولبس الصوف، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف، وجالس أهل العلم وشاورهم، فكان يجلس معهم على الأرض، وترك قصر الرقادة وسكن داراً مبنية بالطوب، وكان لا يركب إلا إلى الجامع.¹ واصطدم مع داعي دعاة الفاطميين الذي استولى على ميلة.² كان عهد أبي العباس عبد الله، استمراراً للضعف والوهن الذي دب في أوصال الدولة منذ عهد أبيه، حيث اضطرب الحكم في أيامه حتى أنه حبس ابنه زيادة الله، فانتقم منه بالتآمر مع فتيانه من الصقالبة، وقتلوه سنة 290هـ.³

وآلت الولاية والإمارة إلى ابنه المقيد زيادة الله بن أبي العباس (290-296هـ/903-909م) الذي خرج من السجن إلى سرير الملك، وكان آخر أمراء الأغالبة في بلاد المغرب، فأخذ البيعة لنفسه من أهله وأقاربه، وقرأ كتاب البيعة على منبر المسجد الجامع بتونس، ولكنه، نتيجة للطريقة التي وصل بها إلى الحكم بدأ عهده بإراقة الدماء، فغدر بأعمامه وإخوته، وقتل بعض فتيانه وقادته، واشترى بعضهم بالمال.⁴ وشهد عهده انتصارات داعي دعاة الفاطميين أبي عبد الله الشيعي المتوالي، على كثرة الحشود التي حشدها لقتاله، فاستولى أبو عبد الله على سطيف، ثم قسنطينة سنة 292هـ/905م بعد معركة حامية، خسر فيها زيادة الله جنده وسلاحه وماله، وتوالت هزائم الأغالبة يوماً بعد يوم، فاستولى أبو عبد الله على بلزّمة وطبّنة، وزحف على بقية المدن حتى بلغ مدينة الأزرّس وهي آخر معاقل زياد الله الثاني، فسقطت في يد الشيعي بتاريخ 24 جمادى الآخرة سنة 296هـ/18 آذار 909م بعد معركة حاسمة. وهكذا أخفق زيادة الله في وقف المد الفاطمي، على الرغم من محاولاته الاتصال بالخلافة العباسية طالباً النجدة من الخليفة المكتفي بالله أولاً ثم من الخليفة المقتدر بالله، وتحريضه الفقهاء في إفريقيّة وعامة الشعب على الفاطميين، وإعادته العاصمة إلى رقّادة. فدب اليأس إلى قلبه وانغمس في اللهو والشراب. وبعد سقوط الأزرّس في يد الفاطميين فر إلى طرابلس ومنها إلى مصر ففلسطين، وتوفي في الرملة سنة 296هـ/909م، وانقرضت بذلك دولة بني الأغلب.⁵

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 317.

² المليي ميارك، مرجع سابق، ص 127.

³ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 79.

⁴ نفسه.

⁵ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 320.

الحياة الحضارية

الفن والعمران : خلال القرنين من الزمان الذي دامته دولة الأغالبة، تقدمت البلاد تقدماً كبيراً محسوساً، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية، فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك. ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدي القيروان وتونس الجامعين، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة، وإعطاؤهما صورتها الباقية إلى اليوم. وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه عقبة بن نافع بناء بدائياً، ثم جدده حسان بن النعمان وأكمله حنظلة بن صفوان، ولكن الذي أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية، كان زيادة الله بن الأغلب، وأقام في قاعة الصلاة عدداً كبيراً من الأعمدة الرائعة التي أحيطت أطرافها بأشرطة من الخشب ذات التزيينات المحفورة. وقام بعض خلفاء زيادة الله بإضافة عناصر عمرانية وتزيينية جديدة إلى ذلك المسجد.¹ وقد أنفق في ذلك مالا جزيلاً طوال سنوات كثيرة. وكان يقول : "ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان، وبياني قنطرة أم الربيع، وبياني حصن مدينة سوسة، وتوليتي أحمد أبي محرز قضاء إفريقية".² وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة في جامع تونس الذي كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بناه سنة 114هـ/732م، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلبي، فهو الذي أعطاه صورته البديعة التي يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة، وهذا الرجل هو الذي أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد.³

وكان الذي بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة،⁴ ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في إفريقية. أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط في إفريقية، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط.⁵

¹ ابن الأبار، مصدر سابق، ج 1، ص 163-164.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 106؛ النويري، مصدر سابق، ج 24، ص 61.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 109.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 357.

⁵ مؤنس حسين، معالم، ص 109.

وكانت عناية بني الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها، ومن أهم منشآتهم العسكرية التي يذكرها لهم التاريخ، دار الصناعة في تونس وأخرى تماثلها في سوسة، وللدارين صفحات مجيدة في تاريخ النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط.¹

ومن نماذج المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات، التي كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد، وحاميات رسمية. ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد، أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات. ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس، وتوقد فيها النيران وقت الخطر، وقد بقي من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب.² وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر، وطول ضلع سوره أربعون متراً تقريباً، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات، مرفوعة على أعمدة، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض، وهي تستعمل للنوم والأكل، ويلبها صحن الرباط، وهو مساحة واسعة مسورة تدور حولها البوائك،³ وهذه البوائك طابقان وهي تفتح أو تظل على صحن الرباط وفي ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط.⁴

وشبيهه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة. والرباط طابقان يخصص الثاني للحراسة والعبادة، وفي العادة يكون للربط شيخ من أهل الصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه.⁵

¹ نوح فوزية محمد عبد الحميد، البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف الدكتور أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1985-1984. ص 74.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 364؛ نوح فوزية محمد عبد الحميد، مرجع سابق، ص 87.

³ البوائك : مفردتها البائكة، أطلقت هذه التسمية في الشام على المخزن الكبير الذي يتكون من قناطر تعلو أبوابه المتعددة. البائكة مجموعة الأعمدة المتتابعة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف. هذا اللفظ يستعمل بشكل أساسي في العمارة الدينية وعلى وجه التحديد في عمارة المساجد وهي تدل على صفوف القناطر التي تقع الأروقة بينهما وهي عادة تحاط بصحن مكشوف وترتكز على أعمدة أسطوانية أو دعائم مربعة أو مستطيلة المقطع وتؤلف عادة مع سور المسجد رواقاً واحداً.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 109-110.

⁵ البكري، مصدر سابق، ص 35-36؛ مؤنس حسين، معالم، ص 109-110.

وفيما يتعلق بالعمارة المدنية، فقد بنى الأغالبة مدينتين ملكيتين كانت أولاهما العباسية أو القصر القديم. وقد بناها إبراهيم بن الأغلب على نحو 6 كلم جنوبي القيروان، وقد بناها إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة، وبنى فيها قصره ومساكن حاشيته والمسجد الجامع، ودار سك النقود والدواوين، وأحاطها بالأسوار القوية، وجعل من خلفها خندقاً يحيط بها. وفي وسط المدينة ساحة واسعة عرفت بالميدان كانت تستخدم لعرض الفرسان، واتسعت العباسية، وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة وفنادقها وأسواقها.¹ أما المدينة الثانية فهي رقادة التي بناها إبراهيم بن أحمد، على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان، وقد ابتدأ بها سنة 263هـ / 977م وبنى فيها القصور، منها قصر بغداد، وآخر يسمى المختار، وقدر لهذه المدينة أن تنمو وتتسع باطراد، فأضاف إليها الأمراء من بعده قصوراً أخرى أشهرها قصر العروس الذي بناه زيادة الله الثالث بن عبد الله على أربع طبقات، وبنى محمد بن أبي عقاب الأغلب مدينة قرب تاهرت سماها العباسية.

اهتم بنو الأغلب بالمنشآت الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجل في افريقية اهتماماً كبيراً، ووجهوا إليها عناية خاصة. ومن هذه المنشآت صهاريج المياه وجباها، والصهريج خزان ماء فوق الأرض، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى أربعين متراً وعمقها نحو العشرين، ثم يبنون عند الماء حجرة أوقبوا واسعا بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطلي بالبلاط الذي لا تؤثر فيه المياه، وقد بطن بالرخام، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك، فإذا اكتمل جعلوا له سلاماً تؤدي من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء في الغرفة أو القبو السفلي عند الماء، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما ما عدا المداخل وفتحات السلام. وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر، ويستخرج الماء عن طريق فتحات في السقف تشبه الآبار، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء، أو يهبطون بأنفسهم بالسلام.²

وأكثر الأغالبة كذلك من بناء المواجل وهي أحواض ماء واسعة وعميقة، يتجمع فيها ماء المطر، وهي دائماً مكشوفة وقد يقام في وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة. وقد أنشأ زيادة الله بن أبي العباس عبد

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 110.

² مؤنس حسين، معالم، ص 110.

الله المعروف بزيادة الله الثالث، وهو آخر الأغالبة، في مدينة رقادة، بركة أو ماجلا طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة، وأجرى إليه الماء بالسواقي، وسمي هذا الماجل بالبحر. وكان في القيروان وحدها خمسة عشر ماجلا.¹

الحياة الاجتماعية والفكرية : يبدو أن الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالبة، لم تمس الحياة العامة إلا في حالات قليلة، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها، دون أن تعطي اهتماما كبيرا للمنازعات والمنافسات، بين أهل الحكم أو أهل الحرب. ويمكن القول إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى، ولكنها سارت بصورة ما، فأخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الإفريقي طريقها وصورها التي ثبت عليها بتوالي الأجيال.²

فالقيروان مثلاً اتسعت وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيرواني محلي، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من الأثرياء وأهل الصناعة. وغدت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تخرج منه القوافل إلى بلاد السودان، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب، وقامت فيها حلقات الدرس في المساجد، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة، وفي هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبي عثمان سعيد بن الحداد وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً.³

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام، لأن بني الأغلب رغم حياتهم الطويلة في إفريقية، ظلوا منعزلين في عواصمهم التي بنوها، مثل العباسية ورقادة، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة. وهنا تبرز شخصية أبي سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المعروف بـ "سحنون"، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً "ورعاً فاضلاً جليل القدر... يعرف حقه لدينه وابوته"⁴، ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأوائل وتوفي سنة 240هـ/858م. ويكتب عنه أبو العرب قائلًا: "اجتمعت

¹ المرجع السابق، ص 111؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 372-374.

² مؤنس حسين، معالم، ص 111.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 112.

⁴ المالكي، مصدر سابق، ج 2، ص 153.

فيه خلال ما اجتمعت في غيره الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملابس والمطعم، والسماحة والترك، ألا يقبل من السلطان شيئاً... وكان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكان فيه حلقات للصفريّة والإباضية مظهرين لزيّفهم، وكان حافظاً للعلم ولم يكن يهاب سلطاناً في حق يقيمّه".¹ وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبايرة، وتعرض للأذى على يد زيادة الله الأول الذي اشتدت محنة خلق القرآن في أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة، وقد تولى سحنون -الذي ولي القضاء بعد المحنة- الانتقام من عبد الله بن أبي الجواد القاضي الأسبق الذي امتحن القضاة وأذى بعضهم، فجلده حتى مات. وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبي الجواد إلى آخر أيامه. وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف بالسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف بـ "المدونة"، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً في نفس الوقت. وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامي.²

ومن العلماء أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي الذي سمع من الامام مالك، وهو الذي كان يقول :
" لا تمر الليالي والأيام حتى تمتحى كتب أبي حنيفة من إفريقية".³ ومنهم أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان الذي كان من أهل العلم وقيل لسحنون "أن أسد بن الفرات قال القرآن مخلوق فقال سحنون والله ما قاله ولو قاله ما قلناه"، وقد ولاه الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قيادة الجيش الذي وجهه لفتح صقلية، فمات فيها ولم يستكمل فتحها.⁴ ومنهم القاضي أبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن يسار بن مسلم الكناني، وهو من المعدودين من أصحاب مالك، ولاه إبراهيم بن الأغلب القضاء على كره منه. ولما ولي القضاء جمع كل عبد له وماشية وأراهم للناس وقال لهم : "هذا ما أملكه، وإنما أوقفتمكم عليه لتعلموا أنني متى زدت على ذلك فاعلموا

¹ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، كتاب طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني بيروت، (د ت). ص 101-102.

² مؤنس حسين، معالم، ص 113.

³ المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 244.

⁴ أبو العرب، مصدر سابق، ص 82-83.

أني خائن".¹ كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد العالم الحكيم أبي يعقوب إسحاق بن عمران البغدادي فقد استدعاه الأمير زيادة الله الثالث لمعالجته.² وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم جميعا.

وكان بعض علماء إفريقية من أصل مشرقي والبعض الآخر رحل إلى المشرق طلبا للعلم. فالقدا مي أخذوا الحديث والفقه على يد الإمام مالك نفسه، أما الأجيال اللاحقة فكانوا مستمعين لأتباعه أو أتباع هؤلاء الذين لم يبارحوا إفريقية. وبذلك تصبح القيروان مدينة متبحرة في العلم تجذب الطلبة الذين يستقرون فيها. فأهل المدينة من التجار والعمال الزراعيين يكونون بعد عملهم حلقة استماع حول الشيوخ المشهورين، وكان المستمعون يأتون من الأندلس ومصر وحتى من بلاد فارس. ويقال أن أندلسيا كان ذاهبا إلى المشرق وعندما سمع سعيد بن الحداد يشرح الأحاديث صاح قائلا: "ما لي حاجة بالتقدم إلى المشرق وأنا أعلم أني لا ألقى مثلك" وأصبحت شهرة القيروان تتعدى البحار وسوف تعبر العصور. فشهرة القيروان التعليمية وخاصة شهرة سحنون أكثر من أي عالم آخر بكتابه "المدونة" الذي كان سببا في كتابة خمسة تعليقات ضخمة لتفسيره، سيؤكدون الانتصار الساحق للمذهب المالكي في بلاد المغرب حتى وصول العثمانيين.³

وخلاصة القول أن القيروان غدت في عهد الأغالبة مركزا رائعا للحياة الدينية الإسلامية، والعلوم، والآداب، كلها على حد سواء، نظرا لموقعها في منتصف الطريق بين المشرق الإسلامي وغربه.⁴

¹ المالكي، مصدر سابق، ج 1، ص 278.

² الجليلي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 270.

³ مارسيه جورج، مرجع سابق، ص 107.

⁴ Schacht J., **Aghlabids, religious life**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden. 1986. p. 249.

4 - الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (296-362هـ/909-975م)

كان قيام الدولة الفاطمية في حد ذاته ثورة وانقلابا في التاريخ الإسلامي، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية في إقامة خلافة لهم في المغرب جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية، للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم. وكان لهذا النجاح الذي أحرزه الفاطميون آثار حاسمة في تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد. فإن المغرب الإسلامي رغم انفصاله عن الدولة العباسية كانت تسود فيه المذاهب السنية، وذلك لأن المذهب الإباضي في تاهرت، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج، كان لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة، حتى أطلق عليه حديثا اسم المذهب الخامس، وحتى إمارة سجلماسة الصفيرية كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ببغداد، كما أن دولة الأدارسة في فاس، كان مذهبها سنيا، مما دعا إلى تسمية هذه الدولة بالدولة الهاشمية، شأنهم في ذلك شأن العباسيين، وعلى هذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام السني في المغرب الأقصى والأوسط، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهدا صادقا في القضاء على هرطقات البربر في المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى، وخاصة هراطقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية في المغرب انقلاب خطير، أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق، وبالإضافة العباسية في بغداد.¹ وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى القول أن تلك الدول كانت تجارب مغربية ذات صلة بأوضاع المغرب، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذي خاضه المغرب لكي يكتشف ذاته في النهاية ويتم إسلامه واستعباده. أما قيام الدولة الفاطمية في المغرب، فقد كانت تجربة غريبة عن المسار العام للتاريخ المغربي، أو هي شجرة غريبة زرعت في أرض المغرب ونمت وارتفعت فروعها في الهواء حيناً، ولكنها لم تضرب جذورا، ولا أضافت إلى التجارب السياسية في المغرب شيئا نابعا من تربة تلك البلاد، إنما هي كانت بذرة عقيمة مشرقية غريبة عن بلاد المغرب، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب، فكان لها فيه شأن، ثم مضت مخلقة وراءها قلقا شديدا ودمارا بعيد المدى.²

وقد كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطان في المشرق. ويميل بعض المؤرخين إلى القول أن هذا الصراع بدأ بعد اجتماع سقيفة بني ساعدة، ثم أعقبه تنازل الحسين بن علي بن أبي طالب عن الخلافة بعد الاتفاق مع معاوية بن أبي سفيان، ثم قتل أخيه الحسين بن علي

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 507-508؛ مؤنس حسين، معالم، ص 110.

² مؤنس حسين، معالم، ص 134.

بن أبي طالب مع بعض آل بيته في كربلاء سنة 61هـ/680م، على رجال يزيد بن معاوية وفي العهد العباسي فشلت الانتفاضة التي تزعمها من فروع الحسن محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم، للاحتجاج على استبداد العباسيين بالخلافة، وآخر حلقة في هذا الصراع وكبرى هذه الحوادث وأهمها فهي الكارثة التي حلت بالعلويين وبآل الحسن خاصة غداة هزيمة فخ سنة 169هـ/785م، التي وقعت في عهد الخليفة الهادي العباسي.¹ كل هذه النكبات والمآسي التي تعرض لها آل البيت نتج عنها مع شدة المرارة قوة الشعور بالتضامن والتنظيم للثأر. ولم يأس شيعة علي وآله من إمكانية إقامة دولتهم، فلجأوا إلى السرية لتنظيم صفوفهم بعيدا عن أعين الدولة. وقبل الحديث عن تفاصيل قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، لا بد من التعريف بالمذهب الشيعي، وأحد أهم فروعها وهو المذهب الإسماعيلي الذي يعتبر أساس الدعوة الفاطمية، ومذهبها الرسمي.

مفهوم الشيعة :

لغة : الشيعة أتباع الرجل وأنصاره، ويقال شايعه كما يقال والاه من الوَلِيّ.²

اصطلاحا : الشيعة هم الذين شايعوا عليا (رضي الله عنه) على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده.³ ومذهبهم أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لني إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه أن يعين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر. وفي نظرهم أن الإمام علي (رضي الله عنه) هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه ليكون خليفة له.⁴ وجاء في لسان العرب، أن هذا الاسم غلب على من يتوالى عليا وأهل بيته، رضوان الله عليهم أجمعين، حتى صار لهم اسما خاصا فإذا قيل : فلان من الشيعة عرف أنه منهم.⁵

¹ لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979. ص 194.

² ابن منظور، مرجع سابق، مج 8، ص 188.

³ الشهرستاني، مصدر سابق، ص 118.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 348.

⁵ ابن منظور، مرجع سابق، مج 8، ص 189.

وينقسم الشيعة إلى خمس فرق كبرى، كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية،¹ ويتفرع عن كل فرقة مجموعة من الفرق ليس هذا مقام تفصيلها والحديث عنها. وستوقف عند فرقتي الإمامية والإسماعيلية الذي قامت عليه الدولة الفاطمية.

الإمامية هم القائلون بإمامة علي (رضي الله عنه) بعد النبي عليه السلام، نصا ظاهرا، وتعيينا صادقا. وساقوا الإمامة من علي إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق.²

وقد قام جعفر الصادق بنقل الإمامة من بعده من ولده إسماعيل³ إلى ولده موسى الكاظم، ولم يوافق بعض الشيعة على هذا النقل لأن الإمامة في نظرهم سر أودعه الله في آل البيت، وهي تنتقل من الإمام إلى ابنه الأكبر وراثته حتمية. فظلوا متعلقين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وقالوا إن إسماعيل هو الامام المستقر، وأن موسى الكاظم أخاه إمام مستودع، أي أن أباه استودعه الامامة إلى أن تعود فتستقر في إسماعيل وأولاده. أما موسى الكاظم وأبناؤه فهم الأئمة السبعة، لأن موسى الكاظم عندهم هو الإمام السادس، ثم جاء بعده ابنه الذي استتر، ولا زالوا في انتظاره إلى اليوم.⁴ والشكل التالي يوضح تسلسل الأئمة عند الشيعة.

وقد أدى هذا الاختلاف إلى انقسام الشيعة الإمامية إلى فرقتين :

الأولى : فرقة الإمامية الموسوية، وتسمى أيضا "الأثنا عشرية"، التي قالت بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق (ت سنة 173هـ)، لوفاته أخيه الأكبر إسماعيل في حياة أبيهما جعفر، فنص على إمامة

¹ الشهرستاني، مصدر سابق، ص 118.

² ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 355.

³ يختلف الشيعة حول وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق، فمنهم من قال أن الإمام إسماعيل لم يموت في حياة والده، وإنما استتر في مكان ما، لأنه كان محل بحث من طرف العباسيين، نظرا لنشاطه السياسي المعارض، وأشاع والده موته تقية وتمويهها للعباسيين، وأنه عقد محضرا وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة. ومنهم من قال بموت إسماعيل في حياة أبيه وشهادة الناس ذلك، فموته صحيح، وبما أنه توفي في زمن أبيه فلا بد أن تنتقل الإمامة لابنه محمد. (انظر : البغدادي، مصدر سابق، ص 68؛ الشهرستاني، مصدر سابق، ص 135؛ ابن خلدون مصدر سابق، مج 1، ص 356).

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 137.

موسى هذا، ثم ابنه علي الرضا ... ويقفون عند الامام الثاني عشر من الأئمة وهو محمد المهدي الذي اختفى نحو سنة 260هـ، ويقولون أنه سيعود في آخر الزمان فيملاً الأرض عدلاً.¹

الثانية : فرقة الامامية الإسماعيلية، التي نفت الإمامة عن موسى الكاظم، وقالت بإمامة إسماعيل الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق نصاً عليه باتفاق من أولاده، وإن كان قد مات قبل أبيه فإن حقه في الإمامة ثابت من بعده لأعقابه يتولاها أكبرهم سناً، لأن الإمامة عندهم تكون من الأب إلى الابن، وقالوا بعد إسماعيل أتت أئمة مستورة، لأن الامام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له شوكة وقوة يظهر بها على أعدائه، وإنما يظهر دعواته. وهكذا انتقلت الإمامة إلى الابن الأكبر لإسماعيل وهو محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين عندهم، وظل هؤلاء الأئمة يتداولون الإمامة واحداً بعد واحد في ستر وخفاء إلى أن جاء عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية، فأظهر الدعوة له أبو عبد الله الشيعي في كتامة، ثم أسس الدولة الفاطمية في القيروان. ومن أجل هذا يسمون أيضاً بالباطنية، لأنهم يقولون بالإمام الباطن أي المستور. وقال بعضهم إنما سموا الباطنية لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلاً.²

وقد لقيت حكاية استتار الإمام والمهدي المنتظر إقبالا واسعا من أبناء المسلمين، لأن الانسان إذا يؤس من الواقع لجأ إلى الأمل، وكان العلويون أملاً كبيراً تعلقت به قلوب الناس، نتيجة لعجز الدولة العباسية عن إقامة الحكم الصالح الذي بشر به الإسلام.³

ظروف تأسيس الدولة الفاطمية : بعد حوالي قرن من قيام الخلافة العباسية، ظهرت الفتن والاضطرابات التي بدأت كانت تتزايد مع الوقت، وتعمل على إضعاف الدولة. وقد لجأ الخلفاء كما هو الحال في صراع الأمين والمأمون إلى العجم من الترك والفرس يستعينون بهم ضد بعضهم البعض، وأدرك العجم أنهم السلطة الحقيقية للدولة، وتحول الخليفة إلى حاكم صوري أو شكلي، ثم أصبح دور الوزراء يقتصر على الجباية وجمع المال. وفي

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 356-357؛ أمين أحمد، ضحى الإسلام، دار الكتاب اللبناني، ط 10، بيروت، (د.ت). ج 3، ص 212.

² ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 356-357؛ أمين أحمد، ضحى الإسلام، ص 213.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 137.

أثناء ذلك ضاعت الرعية، واتجه الناس يتطلعون إلى حاكم صالح عادل. وتحسدت هذه الآمال في صورة العلويين أي سلالة علي بن أبي طالب الذين عانوا من القتل والتشريد في عهد الأمويين.¹

وكان العلويون في عهد إمامهم جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (83-148هـ)، قد اتجهوا إلى الابتعاد عن السياسة، ولا يطلبوا الحكم بسبب ما لقوه من أذى في سبيله. وقد رفض جعفر الصادق الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال، وهو من كبار مؤسسي الدولة العباسية. ولكنه كان يرى نفسه إماما في العلم والفضل ووارثا لعلم جده علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وقد شاعت آراؤه في العقائد وفي الأحكام. وكان شيعة آل البيت يرون أن الإمامة لا تقتصر على العلم فقط بل تشمل السياسة أيضا، وإن جعفر الصادق لم يترك الإمامة (السياسة) زهدا فيها ولكن تقية، أي اتقاء لأذى العباسيين، فهو القائل: "التقية ديني ودين آبائي من لا تقية له لا دين له"، وبذلك يكون قد وضع أساسا راسخا من أسس الدعوة عند الشيعة بوجه عام وعند الإسماعيلية بوجه خاص ألا وهو التقية. وعلى هدى هذا المبدأ مكن جعفر الصادق لنفسه ولعقبه من بعده في هدوء وسلم بين أوساط المثقفين وعامة المسلمين فأبعد عن بيته التبعة والظنة والملاحقة من طرف العباسيين.²

وقد اقتنع بهذا الأسلوب الهادئ في الدعوة إلى آل البيت، مجموعة من العلويين المنتورين الذين تطلعوا إليه إماما مفكرا، وزعيما سياسيا، في نطاق مبدأ التقية والستر. غير أن فريقا من الشيعة المتشددين من فرع الحسن بن علي، تمسكوا بالأسلوب القديم المتمثل في إعلان الثورات، عسى أن تمكنهم الظروف من الانتقام من العباسيين، وإعادة حق آل البيت لهم. ولكنهم انهزموا في كل انتفاضاتهم وثوراتهم أمام العباسيين، وأخفقوا في إقامة دولة لهم، حتى تمكن ادريس بن عبد الله بن الحسن من تأسيس الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى كما مر بنا.

أما بالنسبة لطائفة الإسماعيلية، فقد مكنها الفراغ السياسي الذي تركه آخر الأئمة الاثني عشرية، ومبدأ التقية الذي أقره جعفر الصادق كطريق سليم للدعوة لصاحب الزمان، من أن تظهر في ميدان العمل وتحرز

¹ المرجع السابق، ص 135.

² لقبال موسى، دور كتامة، ص 197.

انتصارات كبرى.¹ وأول الأئمة المستترين هو محمد بن إسماعيل، فقد ولد بالمدينة المنورة سنة 132هـ، وكان له من العمر ستة عشر عاما عند اختفاء أو موت والده، فأقبلت الوفود عليه لمبايعته بالإمامة، مما لفت أنظار العباسيين إليه، فأصدر الخليفة هارون الرشيد أمره بالقبض عليه، فخرج من المدينة إلى الكوفة سنة 159هـ، وبدأت معه مرحلة السرية في الدعوة الإسماعيلية، فبقي في الكوفة مستترا عن العيون، ولكن العباسيين علموا به، فخرج ثانية من الكوفة إلى الري، حيث أتباعه وأنصاره، واستقر عند أحد أتباعه السريين، وتمكن في بلاد فارس من بناء بلدة صغيرة استقر فيها فترة قصيرة اسمها "سملا" (حاليا محمد آباد)، ومنها خرج مرة أخرى إلى قلعة نهاوند عند أحد أتباعه وهو منصور بن حوشب، ومن نهاوند إلى نيسابور، ومنها إلى فرغانة، ثم إلى عسكر مكرم. وعندما اشتد الضغط والطلب عليه من قبل المأمون اضطر إلى الذهاب إلى تدمر في بلاد الشام.² وكان محمد بن إسماعيل ينشر بواسطة دعائه آراء الإسماعيلية في كل مكان نزل فيه، وقد وجدت تلك الآراء صدها وسط جماهير عطشى للعدالة والأمن، كما وجدت فيهم تربة خصبة لاحتضان الدعوة والدفاع عنها، في الكوفة، وبلاد الشام، والبحرين، واليمن، ووسط القبائل العربية التي تنزل بتدمر.

وقد قام بأمر الإسماعيلية مجموعة من الدعاة، نظموا أنفسهم بطريقة سرية غريبة، فقالوا إن الإمام مستتر في مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو أكبر الدعاة وسموه الوصي، وهو مدير الدعوة ومنظمها، وتحت يده داعي الدعاة ثم الدعاة، وهم مراتب، وأخذ الموضوع صورة مؤامرة سرية كبرى هدفها نقل الخلافة من بني العباس إلى آل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). وقالوا إن الإمام كان مستترا في فارس، ثم انتقل إلى سلمية قرب حماة، والإمام فيها حصين وله حرس وعيون. وهم يجمعون باسمه مالا كثيرا، لأن الواحد من الناس إذا آمن بدعوتهم أصبح لزاما عليه أن يؤدي الزكاة للإمام، وقد اجتمع له بذلك مال كثير. وكان الناس عموما متعاطفين مع آل علي، ولهذا كانوا يتسترون على الدعاة والشيعة، ومن لم يكن متعاطفا معهم، فإنهم يستميلونه بالمال الوفير الذي كان في أيدي الدعاة. وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءا، ازدادت دعوة آل البيت قوة، ولكن ما لم يكن متوفرا بين أيديهم هو القوة العسكرية مثل التي تملكها الخلافة العباسية. ولهذا اتجهت أنظار رئاسة التنظيم الشيعي إلى البحث عن بلد بعيد عن متناول الدولة العباسية، فاتجهوا إلى اليمن لثلاثة أسباب :

¹ المرجع السابق، ص 204.

² تامر عازف، تاريخ الإسماعيلية الدعوة والعقيدة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1991. ص 118-119.

الأول : البعد الشاسع عن قلب الدولة العباسية

الثاني : صعوبة التضاريس والمسالك، وصعوبة الطرق الموصلة إليها.

الثالث : قربها من الحجاز مجمع الحجاج.

ومن هناك بدأوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل، وفي بداية القرن الرابع الهجري تسلم القيادة رجل يدعى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب. ولكنه لم يجد في اليمن القوة العسكرية التي كان يبحث عنها، بسبب تفرق سكان اليمن أحزابا وشيعا، ومن الصعوبة بمكان جمعهم على كلمة واحدة، وقيادة واحدة. ولكن أرض اليمن كانت مهذا آمنة لاحتضان الدعوة، ومنها انتقلت الدعوة إلى بلاد المغرب.¹ وقبل الحديث عن تفاصيل قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد من التعرض إلى مراحل نشر الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد وهما مرحلتان :

الأولى : مرحلة الإعداد للدولة : يُرجع كثير من المؤرخين انتشار حركة الدعوة الإسماعيلية السرية في

بلاد المغرب، إلى عصر جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي كان له اهتمام بنشر علوم آل البيت وآدابهم وفضائلهم بين جمهور المسلمين خاصة في تلك البيئات البعيدة التي مازالت على فطرتها تحتفظ بالإسلام وبأصوله في صورة غير معقدة.²

ولتحقيق هدفه أنفذ في سنة 270هـ إلى بلاد المغرب داعيين هما عبد الله بن علي بن أحمد المشهور باسم الحلواني، وأبو سفيان الحسن بن القاسم. وقد أوصاهما بالتوغل في بلاد المغرب، والانفصال عن بعضهما، أخذاً للحيلة، وضمانا لتعميم الدعوة، وطلب منهما إعداد النفوس لقبول فكرة الدخول في الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت. وقال لهما: "اذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيا أرضا بورا فاحرثاها وكرباها وذلكها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبه فيها".³ فنزلا كل منهما في منطقة بعيدا عن

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 137-139.

² لقبال موسى، دور كتامة، ص 216.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 6، ص 126؛ المقرئ (تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ))، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996. ج 1، ص 41.

الآخر، بأرض كتامة التي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى، والأغلبة في افريقية، واستطاعا أن يتوغلا بأفكارهما في هذه القبيلة ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد.¹

نزل أبو سفيان بموضع قريب من مدينة تالة في الشمال الغربي من تونس، وبنى فيها مسجدا وتزوج امرأة واشترى أمة وعبدا يعمل بمساعدة هذا العبد الذي يبدو أنه هياه ليكون عينا له في المنطقة، أما امرأته فكانت أيضا تستعين في شؤون البيت ولمعرفة شؤون نساء المنطقة بهذه الأمة. أما أبو سفيان فقد استقر بمراجنة في منطقة الكاف بتونس، وكرس وقته للدعوة عن طريق التعليم، وأصبح مقصد كثير من سكان الناحية الذين كانوا يأتون إليه في مسجده، لسماع أحاديثه عن مزايا أهل البيت واشتهر أمره وذاع بين السكان خبر فضله وعلمه وورعه، "فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف، فأقاما سنين كثيرة".² وهكذا بدأ هذا المركز يضم بين مجموع سكانه متشيعين لآل البيت، وانتشرت الدعوة الشيعية بهذه النواحي.³ ولم يتيسر لهدين الرجلين لأكثر من الحرث، واحتاج الأمر بعد ذلك إلى صاحب بذر -بمصطلح الدعوة- أي رجل ينثر البذور في الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع، أي رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة.⁴

لما انعقد مجلس الدعاة الفاطميين برئاسة شيخهم محمد بن إسماعيل بن الحسن قبل سنة 288هـ/890م، تم إعلان قرب ظهور الإمام المهدي، وعلى هذا أمر دعاة مذهبه بالانتشار في كامل الأقطار الإسلامية، واختير من بين أولئك الدعاة أبو عبد الله الشيعي⁵ ليقوم بالبذر وهو أسهل من الحرث والتنقية، والإعداد التي أنجزها سابقوه في المنطقة، واسمه الكامل الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي، من أهل صنعاء أو من أهل الكوفة.⁶ وكان قد سمع بوجود الإمام بسلمية فاتصل به، ورأى الإمام أهليته ونجابته، فأرسله إلى ابن حوشب باليمن للتدرب على يديه، وصار من كبار أصحابه. ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة الداعيين بأرض كتامة، عهد

¹ الصلابي علي محمد، الدولة الفاطمية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2006. ص 42.

² المقرئزي، مرجع سابق، ج 1، ص 41.

³ لقبال، دور كتامة، ص 217.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 140.

⁵ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 88.

⁶ جمال الدين عبد الله محمد، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991. ص 42.

إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة للإسماعيلية في بلاد المغرب، ثم زوده بالمال وقال له : "إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك".¹

خرج أبو عبد الله الشيعي إلى مكة مع الحجاج اليميني، وجعل يمشي بين الناس في الموسم، ويظهر الورع والتقوى. وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجاج كتامة، والتقى ببعض رؤسائهم وتقرّب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم، "ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه"، فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سألوهم عن أمره وشأنه، فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر، فتركتها وصرت أطلب المعيشة من الحلال، فلم أر لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان".² ثم ادعى أنه يريد مصر ليعلم بها، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة، وكان في الطريق يحدثهم باستفاضة عن فضائل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وآل بيت النبوة فازداد حبهم وإعجابهم به وتقديرهم له. وعندما وصل إلى القيروان، أصر على المكوث فيها لبعض الوقت ووعدهم للالتحاق بهم قريبا. لم يضيع أبو عبد الله وقتا طويلا في القيروان حتى تعرف على أخبار القبائل، وتأكد من كثرة عدد قبيلة كتامة وشوكتها بين القبائل البربرية الأخرى، وعدم استكانتها لسلطان الأغالبة، ثم قرر بعد وقت قصير في ربيع الأول من سنة 288 هـ/جوان 901م الالتحاق بأصحابه الكتامين.³

وعندما وصل إلى موطن كتامة، تنازع الكتامين عليه، ففاجأهم بسؤاله : أي موضوع عندكم يسمى فج الأخيار ؟ فدهشوا لأنهم لم يذكروه في حديثهم معه، وأجابوه بأنه عند بني سكنان، فقال : إياه نقصد ثم نأتي كل قوم منكم في موضعهم ونزورهم في بيوتهم، ولا أجعل لأحد حظا من نفسي دون أحد إن شاء الله، وارضى الجميع بذلك. وسار الداعية إلى جبل ايكجان (قرب قسنطينة)، حيث يقع فج الأخيار، وانتشر خبره بين الناس، فتوافدت الجموع إليه، وحدثهم عن فضائل آل البيت، ثم بدأ يفضي بما في نفسه شيئا فشيئا فقال : "هذا فج الأخيار وما سمي إلا بكم ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان فانهم كتامة وبخروجكم من هذا الفج يسمى فج الأخيار".⁴ ومن

¹ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 6، ص 127.

² ابن عذاري، مصدر سابق، ج 1، ص 135.

³ جمال الدين عبد الله محمد، مرجع سابق، ص 43؛ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 89.

⁴ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 6، ص 127.

هذا الجبل نشط الداعي في حركة الدعوة أو التوجيه المعنوي ببسط علوم آل البيت وفضائل علي بن أبي طالب وذريته فأقبل عليه الناس من كل ناحية لما سمعوه عنه من حجيجهم.¹ وتمثل قلعة إيكجان التي استقر فيها أبو عبد الله الشيعي، ملجأً منيعاً يطل على منطقة زراعية تقع شمالي بلزمة بين سطيف وميلة وتضم عدة مراكز عمرانية ريفية تقيم فيها مختلف بطون كتامة. وتمتد هذه المنطقة الشاسعة على مسيرة خمسة أيام طولاً وثلاثة أيام عرضاً، وتبعد عن رقادة بمسافة عشرة أيام، مما يجعلها في مأمن عن رقابة السلطة المركزية، أو الحصون المجاورة لها، وهي بلزمة وسطيف وميلة التي يمارس أصحابها الحكم باسم الأمراء الأغالبة.²

ولقد اعترضت أبا عبد الله الشيعي بعض الصعاب تمكن من التغلب عليها، ذلك أن وجوده أحدث انقساماً بين البربر، انتهى بانتصار الفريق الذي كان يسانده، والتزمت كتامة الطاعة له، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته،³ فجعل لهم ديواناً، وألزمهم الجندية، وقال لهم: "أنا لا أدعوكم لنفسي، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت الذي صفته كذا وكذا".⁴

ولما استقام أمر أبي عبد الله الشيعي بكتامة، وكثر الداخلون في دعوته من البربر، فقوي أمره، واستفحل خطره، وأحس بقوته، فبدأ أمير الأغالبة إبراهيم بن أحمد يخاف هذه القوة الجديدة، ويعمل لها حساباً كبيراً، وكان لا بد له أن يسعى لتحطيمها قبل أن تحطمه، فأرسل إليه مبعوثاً خاصاً محملاً برسالة شفوية فيها التهديد والإغراء معاً، لكن الداعي لم يعبأ بها، ورد عليه رداً جافاً إلى حد بعيد وتضمن الاستهانة بشأن الأمير، ورفض عروضه المادية، وتهديده بقرب زوال دولته. ولم يعبأ إبراهيم بن أحمد برد أبي عبد الله الشيعي، وقلل من شأنه، وانتقص من قيمة الخطر الإسماعيلي الناشئ، ولم يبادر إلى رد الفعل، وبذلك ترك لخصمه الوقت الكافي لتنظيم صفوفه وإحضار رؤساء القبائل المناهضة، واستمالة الكتاميين واكتساب القدرة على اقتحام الحصون المجاورة والتصدي للجيوش الموجهة ضده.⁵ وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الدعوة الإسماعيلية.

¹ لقبال، دور كتامة، ص 242.

² الدشراوي فرحات، الخلافة الفاطمية بالمغرب، (296-365هـ/909-975م)، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. 1994. ص 87.

³ المرجع السابق، ص 91-92، 100-112؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 510.

⁴ ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 138.

⁵ لقبال، دور كتامة، ص 260-261؛ الدشراوي فرحات، مرجع سابق، ص 99؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 516.

والجدير بالذكر أن الداعي الشيعي قد حرص منذ بداية دعونه على أن ينشر بين المجموعة البربرية الشيعية مبادئ أخلاقية متشددة تقوم على أساس الورع الذي لا تشوبه شائبة، وتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً. وأجبر أتباعه الذين ما زال إسلامهم سطحياً، على العيش والعمل طبق التعاليم الدينية، معاقبا المخالفين بلا شفقة ولا رحمة، ومسلطاً عليهم عقوبات رادعة. كما حمل أتباعه الذين سماهم "المؤمنون" على اعتناق مذهب ديني وحيد، وهو المذهب الذي سهر على نشره بينهم، وتمكن من إخضاعهم لتلك الصرامة التي يتميز بها كل المصلحين السياسيين والدينيين. وتبعاً لذلك فقد شهد ذلك المجتمع الشيعي الكتامي، استقامة أخلاقية، جدية بالملاحظة، وعاش أفراد عيشة التقشف والزهد، مقتدين بسيرة زعيمهم المثالية المفعمة بالعفة والفضيلة.¹

الثانية : مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة في المغرب : وتبدأ هذه المرحلة منذ سنة

289هـ، وتنتهي بإسقاط الشيعة الإسماعيلية لدولتي الأغالبة والرسّامين سنة 296هـ. شرع أبو عبد الله الشيعي في عام 289هـ في مصادماته الحربية مع الأغالبة، فقد زحف إلى طبنة، وأغار عليها، فسير إليه أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد ابنه أبا الأحوال لمحاربتة، ولكنه انهزم مرتين. ثم استدعاه أخوه زيادة الله الثالث من طبنة بعد أن تولى الإمارة عقب مقتل أبيه، وقتله، وانتقل من تونس إلى رقادة، وانغمس في ملذاته. وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله الشيعي، قد انتشرت في البلاد.²

واستطاع في زمن وجيز أن يستولي على بلاد الزاب كلها، ثم دخلت قواته بلاد افريقية، فتزعزع بنيان بني الأغلب، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذي كان في حكم إبراهيم بن أحمد الأغلبي ثم غبنه أبي العباس ثم أبي مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه، وهو آخر الأمراء الأغالبة، وكان قد ارتكب أخطاءً جسيمة في حق أهل افريقية فمال الناس إلى دعوة الشيعي. وفي أوائل جمادى الأولى سنة 296هـ/909م، سقطت مدينة الأريس في يد أبي عبد الله الشيعي، وهي مفتاح القيروان، فعجل زيادة الله بالرحيل إلى مصر في جمادى الثاني سنة 296هـ، ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان، وأعلن قيام الدولة الفاطمية، وأجرى إصلاحات دينية تتماشى والمذهب الشيعي الفاطمي، وبعث يستدعي الإمام المستتر في سلمية وهو عبيد الله المهدي.³

¹ الدشراوي فرحات، مرجع سابق، ص 112-113.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 517.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 143.

وما كاد الخبر يصل إلى عبيد الله المهدي حتى أعد العدة للرحيل، وخرج متسترا في زي التجار خوفا من أن ينكشف أمره من قبل العباسيين، بصحبة ابنه أبي القاسم محمد وبعض من خاصته. ووصل إلى مصر في ركب من أتباعه وأحمال من أمواله، وقد عرف كيف يستخدم هذه الأموال في تيسير سفره، وبعد خروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمساعدة عامل مصر فيما يقال، ولكنه بعد أن وصل برقة، أحس أن رجال بني العباس علموا بأمره، فاستعمل الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالا للمشرفين على الركب فحولوا اتجاهه إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، فنجوا من أيدي العباسيين، ولكن صاحب سجلماسة من بني اليسع بن مدرار، تخوف من أمره بعد استقراره في بلده، فسجنه رفقة ابنه أبي القاسم محمد.¹

وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعي فجمع جيشا ضخما وخرج به من القيروان في سنة متوجها إلى عاصمة بني مدرار سجلماسة لاستخلاص الإمام عبيد الله المهدي من سجنه، وفي طريقه دخلت معظم القبائل في طاعته، فخرج نحو العاصمة الرستمية تاهرت التي استسلمت دون مقاومة، فقتل إمامها اليقظان بن أبي اليقظان وبنيه. وواصل مسيرته نحو المغرب الأقصى دون أن يلقى أدنى مقاومة من أهلها، فانهى به المطاف إلى سجلماسة في ذي الحجة سنة 296هـ/أوت 909م، فلقيت دولة المدراريين نفس مصير معاصريهم الرستميين والأغالبة، ففر اليسع بن مدرار خفية مع بعض أهله تاركا مصير عاصمته في يد أبي عبد الله الذي أخرج سيده ومولاه عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم من سجنهما. وبعد أربعين يوما أقامها الداعي الشيعي في سجلماسة رفقة أبي عبيد الله المهدي، استعداد للعودة إلى رقادة بإفريقية التي وصلها في شهر ربيع الثاني سنة 297هـ/جانفي 910م، ولقي ترحيبا كبيرا من أهلها وأهل القيروان. ثم بويع للمهدي البيعة العامة في رقادة وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، واستقام له الأمر، فضربت السكة باسمه، وأسند المناصب إلى رجال يثق فيهم، "وأظهر عبيد الله التشيع القبيح، وسب أصحاب النبي ﷺ، وأزواجه، حاشى علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ﷺ، ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم".²

حكم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب قبل انتقالها إلى مصر ثلاثة حكام، أولهم عبيد الله المهدي (297-322هـ/910-934م)، الذي دار حول صحة نسبه جدل كبير بين المؤرخين وهو محل شك كبير، حيث كان ولا

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 144.

² ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 159.

يزال، موضوعًا لم يتفق المؤرخون، لا في الماضي ولا في الحاضر، فمنهم من نسبه إلى الفرس أو المجوس ومنهم من قال إنه ابن يهودي، ومنهم من أثبت صحة نسبه إلى آل البيت.¹

كان عبيد الله المهدي يعمل على تدعيم مركزه في بلاد المغرب، وذلك بتركيز السلطات في يده، فاصطدم مع أبي عبد الله الشيعي مؤسس دولته الذي أصبح وزيرًا وخدامًا له، ولكنه عارضه في بعض أفعاله، فاستعان عبيد الله المهدي برجل من كبار الكتاميين هو غزوية بن يوسف، واغتال أبي عبد الله الشيعي مع أخيه أبي العباس، ثم غدر بغزوية بن يوسف ودبر عملية قتله. وكان لهذا الفعل أثر سلبي في نفوس الكتاميين مما جعلهم يثورون ضد عبيد الله، ولم يستطع عبيد الله المهدي التحكم في الوضع وإخماد الثورة إلا بصعوبة كبيرة. ولما شعر هذا الحاكم بعدم الأمان وسط خصومه من الكتاميين في رقادة والقيروان، فكر في إنشاء مقر جديد لحكومته بعيدا عن القيروان، فشيّد مدينة المهديّة سنة 303هـ/916م، واتخذها عاصمة مملكه، ثم فرض على الرعية دفع ضريبة الخمس، والخراج، وطبق أسلوب الغرامات والمصادرات، كشكل من أشكال العقوبات الفردية والجماعية، وفرض ضرائب جديدة كضريبة التضييع وضريبة الشطور.²

توفي عبيد الله المهدي، وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عبيد الله الملقب بالقائم بالله (322-334هـ/934-945م). وقد واجه الحاكم الجديد ثورات عديدة اثناء حكمه في كل من طرابلس والزاب والأوراس وفي فاس، لأن قبضة الفاطميين لم تتحكم نهائيا في الأقاليم الغربية التي كانت تلقى دعما ومساندة من قبل الحكام الأمويين في قرطبة في حركتهم ضد الحكم الفاطمي. اضطر إلى الاستنجاد بالقائد الصنهاجي زيري بن مناد لإخماد بعض الثورات، ولكنه توفي سنة 334هـ، قبل أن يقضي عليها ليترك أمرها لخليفته المنصور.³

تسلم شؤون الخلافة الفاطمية بعد وفاة القائم بأمر الله، ابنه أبو الطاهر إسماعيل (334-345هـ/945-950م) واتخذ لنفسه لقب المنصور، ولكنه كتم موت أبيه ولم يغير الوضع عما كان عليه قبل وفاة أبيه مدة خمسة عشر عاما، بسبب ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي كانت في ذروتها حيث حاصر مدينتي المهديّة وسوسة، وهذا الرجل هو من نكارية الإباضية ويلقب بصاحب الحمار، وكان في أول أمره معلم صبيان، حيث قضى معظم عمره في هذه المهنة، ولما اشتد غليان أهل المغرب غضبا على الفاطميين تزعم هذا الرجل وقبيله الثورة، وظهر بمظهر الزهاد المنتسكين، وانضمت إليه القبائل في حماس شديد، وأيده أهل افريقية، وزعم أنه نائر للعدالة والإسلام وكراهة البدع، التي أراد

¹ المقريري، مرجع سابق، ج 1، ص 35-54.

² بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 96-97.

³ المرجع السابق، ص 98.

الفاطيون إدخالها على العقائد والعبادات، وتمكن من اجتياح بلاد الفاطميين والحا المنصور الفاطمي إلى التخفي في المهديّة. ولكن حزم المنصور وحسمه قضى على الثورة وقائدها، حيث تعقبه رجال الفاطميين حتى قبضوا عليه، فقتلوه وسلخوا جلده وحشوه قطنا وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد افريقية.¹ ثم أمر المنصور ببناء مدينة جديدة مقابل رقادة وعلى بعد نصف ميل من مدينة القيروان سماها المنصورية التي نقل إليها مقر الحكم. وفي إطار تهدئة الأوضاع عمل المنصور على ربط العلاقات بين المغرب الفاطمي والمشرق العباسي وذلك من خلال إجراء اتصالات مع القرامطة بالمشرق سنة 339هـ/950م وإرجاع الحجر الأسود إلى موضعه في الكعبة بعد أن خلعه سنة 317هـ/929م.²

تولى عرش الدولة الفاطمية بعد وفاة المنصور، ابنه أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله (345-361هـ/950-972م)، وهو رابع حاكم فاطمي وأحد أهمهم. فإليه يرجع الفضل في الاستيلاء على مصر وبناء مدينة القاهرة، كما ينسب إليه وضع وترتيب شؤون الدولة ومنظر رسومها. وقد وجد إلى جانبه شابا ذكيا من خيرة صقالبة الفاطميين هو جوهر الصقلي، فقد كان قائدا ماهرا، وجنديا مخلصا، وضع موهبته في خدمة الفاطميين، فبعد أن غزا المغربين الأوسط والأقصى، التفت إلى مصر، التي دخلها سنة 358هـ/969م، وحقق فيها الحلم الذي طالما راود الفاطميين الذين أرادوا بسط سلطانهم على المشرق ومزاحمة الخلافة العباسية هناك.

دام الحكم الفاطمي في بلاد المغرب مايزيد عن ستين سنة، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط، فلم تخرج عن طاعتهم إلا منطقة تلمسان، ودخلت في خدمتهم قبائل بربرية غنية بالملكات والقدرات، فإذا أضفنا إلى ذلك صقلية، تبينا أن ملك الفاطميين في المغرب كان واسعا وعريضا، وكانوا يستطيعون أن يقدموا للبلاد وأهلها خيرا كثيرا. ولكنهم لم يقدموا للبلاد التي حكموها في المغرب أي خدمة إيجابية، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهديّة، ولم ينشئوا مسجدا واحدا يذكر لهم بالخير غير مسجد المهديّة، وكان مسجدا خاصا. وكانت سياستهم تقوم على جشع مالي بالغ، فقد كانوا يجبون من المال مقادير طائلة،³ ولم تكن لهم أي نية في زيادة عمران المغرب، فلا هم شقوا طريقا ولا أنشأوا سوقا ولا نفعوا قبيلة من القبائل التي خدمتهم. وقد كانت افريقية بالنسبة لهم مستقرا ومصدر ثروة وخطوة إلى مشروع بعيد يحلم بخلافة تحل محل الخلافة العباسية.⁴

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 150.

² ابن عذارى، مصدر سابق، 319-320؛ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 99.

³ مارسيه جورج، مرجع سابق، ص 163-168.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 152-153؛ Canard M., **Fatimids, Economic activity during the Fatimid period**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1991. vol. II, p.860.

5) الدولة الزييرية الصنهاجية (361-405هـ/972-1014م):

بعد خروج الحاكم الفاطمي المعز، من المنصورة في تونس إلى القاهرة، يبدأ عهد جديد في بلاد افريقية والمغرب، حيث انتهى العهد الذي كان فيه الحكام يأتون من المشرق الإسلامي، فقد أسست القبائل البربرية دولة إسلامية جديدة بربرية لحما ودماء، حكمها أمراء وحكام من صلبهم. وقامت أسر بربرية حاكمة بدلا من الأسر الشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية. وأول دولة إسلامية برزت في المغرب الإسلامي بعد خروج الفاطميين هي الدولة الزييرية الصنهاجية.

برزت قبيلة صنهاجة أيام الحاكم الفاطمي المنصور الذي استعان بها على محاربة قبيلة زناتة المعادية للفاطميين. وقد نشأ خلاف كبير بين المؤرخين والنسابة حول أصل قبيلة صنهاجة، وهل هي عربية من حمير أم قبيلة بربرية غير عربية.¹ وبرز من أبناء هذه القبيلة البربرية زيري بن مناد الصنهاجي، الذي قام بدور كبير في القضاء على ثورة أبي يزيد الإباضي سنة 335هـ/946م، كما ساهم في ضم المغرب الأقصى إلى الدولة الفاطمية سنة 347هـ/958م، ومقاومة كل تائر ضد الدولة العبيدية. فأحرزت صنهاجة بذلك مقاما رفيعا ومكانا ساميا لدى الدولة الفاطمية وعلا شأن رؤسائها عند الحكام. فبالغ هؤلاء في إكرام رؤساء صنهاجة وتقديرهم، وأطلق الحاكم يد زيري في قومه وعلى كل مكان تغلب عليه، وولاه أمر تاهرت وباغاية فأمنت الدولة الفاطمية يومئذ من أخطار سكان هذه النواحي، وبقي زيري خادما وفيا للعبيديين إلى غاية مقتله عرضا في حرب نشبت بين زناتة وصنهاجة في رمضان 360هـ/970م.² فنهض ابنه بلكين يطالب بدمه، وعقد له المعز على حرب زناتة وبطونها واستئصالهم، وأمدته بالأموال والعساكر، ومنحه حكم كل الأقاليم التي يتغلب فيها على أعدائه من الزناتيين وكل من حالفهم. فسار في جيش ودخل أقاليم طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة، فأرغم مزاتة ونفزاوة وهوارة على الطاعة والولاء للفاطميين، وتقدم إلى تاهرت، فمحا أثر زناتة، ثم واصل زحفه نحو المغرب الأقصى تابعا آثار أعدائه، فلحقهم بسجلماسة، فأوقع بهم وتقبض على رئيسهم فقتله، وبقي ثلاثة أيام في ساحة الوغى، وأمر أن تجعل الجثث أكواما يصعد عليها المؤذنون ليؤذنوا للصلاة. وبعد أن ثار بلكين بن زيري لأبيه وقومه تمادى في فتحه مواطن زناتة حتى يستأصلهم، فدانت له مكناسة، ثم انكفأ راجعا. وفرح المعز لما بلغته أخبار انتصارات

¹ عويس عبد الحليم، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الإسلامي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط 2، القاهرة، 1991. ص 48-49.

² الجليلي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 321.

بلكين، وتؤكد له أنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يلقي على عاتقه عبء ولاية افريقية والمغرب عند مغادرته لهما. فعزم على استخلاف سيد صنهاجة التي وقفت إلى جانب الدولة الفاطمية في أحلك الأوقات. وريثما يعلن له بذلك عينه عاملا له ليخلف أباه بأشير و تاهرت وسائر المغرب، وضم إليه المسيلة، والزاب، فاستسعت ولايته وعظم شأن آل زيري، وغدا بلكين من أكابر رجال صنهاجة.¹

وقبل أن يرحل المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة، استدعى بلكين بن زيري بن مناد وعرض عليه أن يتولى أمور ولاية افريقية والمغرب نيابة عنه، مع المحافظة على التبعية التامة للفاطميين، والحكم باسمهم، وأن يبقى المذهب الشيعي مذهبا رسميا في افريقية والمغرب. فتردد بلكين في قبول هذه المسؤولية وقال للمعز: "يامولانا: أنت وآباؤك من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح"،² وما زال به المعز حتى قبل ولاية المغرب نيابة عنه، فولاه أمر افريقية والمغرب ماعدا صقلية وطرابلس، وسماه يوسف بدلا من بلكين، وكناه أبا الفتوح ولقبه بسيف الدولة وجعل خاتمه في يده. وتم تسليم الحكم رسميا له لسبع بقين من ذي الحجة سنة 361هـ/5 أكتوبر 972م،³ وقال لبلكين عند وداعه: "إن نسييت، ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدًا من إخوانك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا".⁴ وعهد إليه بأن يشرع في غزو المغرب الأقصى لحسم دائه، والقضاء على النفوذ الأموي منه، الأمر الذي أثار غيرة كثير من خصومه، وأشعل نيران العداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين. فاندلعت عدة انتفاضات في مختلف الجهات، حيث وثب أهل باغاية على عامل أبي الفتوح، وبينما كان بلكين يتجهز لمقاتلة الثائرين في باغاية إذ أتاه الخبر من تاهرت أن أهلها قد عصوا وأخرجوا عامله، فرحل إليهم لمقاتلتهم، فظفر بهم، ولم يبارح مدينة تاهرت حتى بلغه أن زناتة نزلوا على تلمسان فقصدوها. ثم أصدر أمرا صارما يمنع كل زناقي ركوب الخيل وشراءها ويحكم بالموت على كل من سولت له نفسه مخالفة ذلك الأمر، فسار أهل زناتة إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى، وخلا المغرب الأوسط منهم.⁵

¹ الطمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010. ص 41-42.

² المقريري، مرجع سابق، ج 1، ص 99.

³ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 7، ص 45؛ الطمار محمد، مرجع سابق، ص 43.

⁴ المقريري، مرجع سابق، ج 1، ص 101.

⁵ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 556؛ الطمار محمد، مرجع سابق، ص 45.

ولكي يستعيد الزناتيون مكائنتهم كلفوا في سنة 365هـ/975م، جعفر بن علي بن حمدون الزناتي كبير زناتية افريقية وشرق المغرب الأوسط، وأخاه يحي أن ينتقلا إلى المغرب ويؤلفا جيشا من المغاربة، ثم دخل جعفر في خدمة الحكم المستنصر في الأندلس، وبرز من بين زناتة زعيم آخر لهم هو خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي، حيث هجم على سجلماسة سنة 366هـ/976م، وقتل أميرها، وكان من أنصار بني زيري، فسار بلكين بن زيري لغزو المغرب الأقصى وقطع دابر زناتة ومحو أثر الأمويين، فاحتل سجلماسة، وتقبض على خزرون فقتله، ثم حاصر مدينة سبتة، ودخل مدينة فاس، واقتحم أصيلا ومنها إلى شالة مركز برغواطة على ساحل المحيط الأطلسي، "وسبي من نسائهم وذراريهم ما لا يحصى عددهم وأرسل أبو الفتوح سبيهم إلى افريقية"¹ "وأذهب دعوة بني أمية من نواحي المغرب وزناتة مشردون بالصحراء"²، وأمام هذه الحملات فر ملوك زناتة أمامه، وافترق جمعهم وهربوا إلى أقاصي الغرب في الرمال والصحاري. وبينما هو سائر في فتوحاته بالمغرب الأقصى إذ جاءه كتاب من الحاكم الفاطمي ينهاه عن التقدم وألا يوغل في غزو المغرب. وفي طريق عودته إلى افريقية مات سنة 373هـ/984م.³

انتقل الحكم بعد وفاة بلكين إلى ابنه المنصور بن بلكين (374-386هـ/984-996م)، وكان واليا بأشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه، فخلفه على الإمارة في أوائل سنة 374هـ، وقلده الفاطمي العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب، فعمد لعمه أبي البهار على تاهرت، ولأخيه يطوفت على أشير، وأوصاهما بالتعاون معا على حماية المغرب الأوسط من أي عدوان يقوم به الزناتيون. وبلغ المنصور أن زيري بن عطية الخزري المغراوي قد ثار في المغرب، واستولى على فاس وأصبح أمير زناتة كلها، وكان يدعو لبني أمية في دولة هشام المؤيد، فأمر المنصور في سنة 374هـ أخاه يطوفت بالخروج على رأس جيش كثيف إلى مدينتي فاس وسجلماسة لاستردادها من الزناتيين، فوصل إلى مدينة فاس، وكان يقوم بولايتها زيري بن عطية الزناتي الملقب بالقرطاس. فلما علم زيري بقدومه بادر بمهاجمته بجموع الزناتيين، وهزمه هزيمة شنعاء، وقتل من الصنهاجيين عددا كبيرا، وقتل من رجال يطوفت قائدين هما ابن شعبان وابن عامل، وعادت فلول جيش يطوفت إلى تاهرت. ومنذ ذلك الحين لم يحاول المنصور معاودة الغزو إلى المغرب وزناتة. ولكن فريقا من الزناتيين انضموا إلى المنصور بن بلكين، ومنهم سعيد بن خزرون الذي

¹ ابن عذارى، مصدر سابق، 237.

² ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 320.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 158.

قدم إلى المنصور في سنة 379هـ، فولاه على مدينة طبنة، وزوج ابنته من وروا بن سعيد، وظل سعيد بن خزرون عاملا على طبنة إلى أن توفي في سنة 382هـ.¹

وفي عهد المنصور قامت ثورتان، الأولى قام بها أبو الفهم الخراساني الداعي سنة 376هـ، وأيدته قبائل كتامة، فحاربه المنصور، وحرب بلاد كتامة سنة 378هـ، وتمكن من القبض عليه وقتله. والثانية ثورة أبي البهار بن زيري في تاهرت سنة 379هـ، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت، ففر منها أبو البهار إلى المغرب حيث دخل في طاعته المنصور بن أبي عامر، فدخل عسكر أبي الفتح المنصور مدينة تاهرت، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبي البهار. ثم أمنهم بذلك، وولى على تاهرت أخاه يطوفت، وعاد إلى أشير. ثم اختلف أبو البهار في فاس مع زيري بن عطية سنة 382هـ، فعاد أبو البهار إلى قومه، ووصل إلى المنصور في 15 شعبان سنة 383هـ، فرحب به المنصور، وخلع عليه.²

لم يطل حكم المنصور، إذ أن الموت عاجله سنة 386هـ، وهو في سن الشباب بعد أن حكم اثني عشرة سنة، وخلفه ابنه باديس (386-406هـ/996-1015م)، الذي تلقب بنصير الدولة وكانت سنه اثنا عشر سنة. فقام بالأمر أعمامه وأكبرهم يطوفت بن زيري والي تاهرت، وحماد بن بلكين الذي تولى أشير في المغرب الأوسط أيضا.³

ورفض الزناتيون الطاعة للأمير الجديد، ونشبت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحاب افريقية في المغرب الأوسط، وبعد نحو خمس سنوات من الحروب الدامية، استقر الأمر بعض الشيء لباديس بن المنصور في افريقية سنة 391هـ/1001م. أما المغرب الأوسط فقد تولى أمره حماد بن بلكين بن زيري وهو عم باديس، وخاض حروبا طويلة مع زيري بن عطية المغراوي شيخ زناتية المغرب الأقصى، وكان النصر في النهاية لحماد بن يوسف. وفي سنة 395هـ/1005م، وجد الزناتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومة بني حماد الصنهاجيين إلى ما لا نهاية، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم في معركة دامية. فاضطر من بقي من زعمائهم إلى الهجرة إلى الأندلس، ودخلوا في خدمة الدولة الأموية هناك.⁴ وكان لانتصار حماد بن بلكين على الزناتيين في المغرب الأوسط وتأمينه

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 558.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 559.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 160.

⁴ نفسه.

حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب، أكبر الأثر في تثبيت بيته في المغرب الأوسط. ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بني عمومته أصحاب افريقية، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بني عمه في افريقية.¹ ومنذ توليه أمر أشير، وهو يفكر في إقامة دولة لبنيه، لأن ولاية حماد قد اتسعت بدرجة كبير، كما أنه جمع حوله العساكر والأموال، وقد عظم شأنه، وشعر بحاجة باديس الماسة إليه، ومما لاشك فيه أن آمالا من هذا النوع كانت تقبع في نفس حماد، إلا أنه كان ينتظر الفرصة المواتية لتجسيدها.²

وقد ظل باديس على وفاق مع عمه حماد إلى أن تحركت قبائل زناتة في سنة 395هـ في نواحي المسيلة وأشير، فسير إليهم عمه حماد، فنازل زناتة وهزمها، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة. ثم نزل بأبي طويل وهي قلعة بأحواز قلعة حماد ومنفذها على الساحل، وهناك اختط مدينة القلعة³ وشيد القصور. وأخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس. وأحس باديس بما يتأهب له حماد، فأراد اختبار طاعته، فكتب إليه طالبا أن ينزل عن عمل تيجس وقسنطينة، فأبى حماد وأظهر الخلاف.⁴

انقسام الدولة الزيرية الصنهاجية

لم يجد باديس بدا من استعمال القوة ضد عمه حماد، فسير لتسليم تلك المدن، هاشم بن جعفر وهو من أكبر قادته مرفوقا بإبراهيم بن بلكين أخي حماد في شوال 395هـ. فلما قاربا حمادا فارق إبراهيم هاشما، ولم يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد. فاجتمعت كلمتهما. فخلعا الطاعة وأظهرا العصيان وجمعا الجموع الكثيرة. فكانوا ثلاثين ألف مقاتل. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أعلن حماد نبذه لطاعة الفاطميين، ودعا للخليفة العباسي سنة 405هـ.⁵ عندئذ عزم باديس على محاربة عمه حماد، فسار إليه بعسكره متجها إلى قلعة حماد في محرم سنة 406هـ، وانضم إليه في الطريق كل الناقمين على حماد، ما أدى إلى انهزام هذا الأخير. غير أن باديس توفي سنة 406هـ دون أن يحقق انتصارا حاسما ضد حماد، وخلفه في العرش ابنه المعز (406-

¹ المرجع السابق، ص 161.

² عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 58.

³ تقع هذه القلعة فوق جبل منيع مطل على بحيرة الحضنة يعرف بجبل كيانة المسمى بجبل معديد وهو المعروف اليوم باسم "المعازيد" وهو على نحو 31 كلم جنوب برج بوعرييج وعلى نحو 20 كلم بالشمال الشرقي من مدينة المسيلة. (انظر: عبد الرحمن الجليلي، مرجع سابق، ج 1، ص 335).

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 563.

⁵ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 323؛ الطمار محمد، مرجع سابق، ص 75.

454هـ/1015-1062م) وهو ابن ثماني سنوات، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد.¹

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك، وهي القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد. وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز. وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام المعز ورجاله تقدم حماد يطلب الصلح على أساس أن يكون تابعا للقيروان، وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط. وتم الصلح في صفر 408هـ/1017م، ويمكن اعتبار ذلك الصلح بمثابة تاريخ لميلاد دولة بني حماد المستقلة في المغرب الأوسط.² وبهذا الصلح وضعت الحرب أوزارها، وانقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين: دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة، ثم بجاية بعد ذلك.³

ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد في شأن من شؤون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطان في القيروان، إلا أن المشاغل الكثيرة التي أحاطت بمؤلاء الأخيرين، جعلتهم عاجزين في الواقع عن القيام بأي محاولة جدية للإجبار بني حماد على طاعتهم. ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الإسمية والتعاون في أثناء الأخطار التي تهددهما معا، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين في طريقها.⁴

الانفصال عن الدولة الفاطمية

أما عن الدولة الزيرية، فقد سارت هي الأخرى نحو الاستقلال عن الدولة الفاطمية. ويبدو أن بداية تدهور العلاقات الفاطمية الزيرية يعود إلى عهد المنصور بن بلكين الذي تولى أمر افريقية بعد وفاة أبيه بلكين بن زيري حيث قال فور تسلمه العرش: "إن أبي يوسف وجدي زيري كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب"⁵ ويقصد بذلك أن الحاكم الفاطمي بمصر لا يقدر على

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 161.

² مؤنس حسين، معالم، ص 162.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 565.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 162.

⁵ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 7، ص 121.

عزله بكتاب. فالمنصور يرى أن بلاد افريقية والمغرب ملك ورثه عم آبائه وأجداده، وفي ذلك تلميح بتحديه للحاكم الفاطمي العزيز بالله. ولا شك أن العزيز بالله قد غضب لهذا القول، وأحس بما يعتمل في نفس المنصور من نوايا الانفصال، فعمل على إزعاجه وتأليب قبيلة كتامة عليه، إضعافاً لنفوذه في البلاد، ولكن المنصور واجه الفتنة بحزم، حيث زحف بجيوشه سنة 378هـ، على بلاد كتامة فحرب حصونها وقصورها وانتصر عليهم. ولما رأى العزيز بالله فشل خطته، لجأ إلى سياسة الاصطناع والملاطفة، فعادت العلاقات إلى التحسن من جديد. ولكن الفاطميين ما لبثوا حتى عادوا إلى سياسة التحريض حيث لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على طرابلس وانتزاعها من صنهاجة، ونجح في ذلك، فقامت الاضطرابات بين صنهاجة وزناتة في هذه المنطقة. ولكن باديس بن المنصور تمكن من القضاء على جميع مؤامرات الحاكم ضده، ولما اين الحاكم ذلك، لم يجد بدا من العودة إلى السياسة القديمة وهي سياسة التودد، فأخذ يعمل على التماس مودة باديس.¹

غير أن أهم مرحلة أدت إلى انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية بمصر، هي الفترة التي تولى فيها المعز بن باديس إمارة إفريقية. فقد تتلمذ على وزيره أبي الحسن بن أبي الزجال، وكان ورعاً زاهداً، فعلمه وأدبه، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، ولما آل الأمر إليه حارب دعاة الشيعة وأتباعهم يومئذ في سائر بلاد افريقية، واضطهدهم إلى درجة أن طائفة منهم خرجوا بأولادهم في سنة 409هـ إلى المهديّة للركوب منها إلى صقلية. وأخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي ونبد المذهب الإسماعيلي، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الانفصال المذهبي والسياسي عن مصر. ومع كل ما قام به المعز بن باديس للقضاء على الشيعة، فإن الفاطمي الحاكم بأمر الله تغاضى عن ذلك، ولم يحاول أن يستثيره أكثر مما فعل، بل كان حريصاً على اكتساب مودته. ثم خطا المعز خطوة أخرى حيث قطع الخطبة للفاطميين، ودعا على منابر افريقية للعباسيين، فازدادت هوة الخلاف بين الدولتين، وتوترت العلاقات توتراً أدى في النهاية إلى القطيعة والانفصال في سنة 440هـ.²

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 567-570.

² المرجع السابق، ص 571-576.

ولما كتب المستنصر إلى المعز يتهدده بقوله: "هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء"¹، رد عليه قائلاً: "إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقدم، ولو أخروهم لتقدموا بأسياهم"²، ثم أمر المعز بلعن الفاطميين في الخطب، وبذلك يكون قد أعلن انفصاله الروحي والسياسي عن الدولة الفاطمية، وانشقاق المغرب الأدنى عنها. ولما تأكد للمستنصر أن استقلال افريقية والمغرب أصبح واقعا ملموسا، ولا رجعة فيه، عمد إلى الانتقام من بني زيري وبني حماد بإرسال قبائل بني هلال إلى بلاد المغرب.

الزحف الهلالي

بنو هلال وبنو سليم قبائل عربية مضرية، كان أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر، من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثرا في الفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين. وفي العصر العباسي لم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترک والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم، ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها، فنزل بنو سليم مما يلي المدينة، ونزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف. وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار دون أن يؤذّن لهم في دخولها وسكناها، وقست عليهم الدول فانحصروا في صحرائهم، وهناك اشتد بهم الفقر، واعتمدوا في معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق. وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحج وينهبونها، حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا "حَوَلاً للأمرء، وُجُماً للذائد وعالة على الحرف، وقام بالإسلام والملة غيرهم"³. ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حدا لغاراتهم. ولما ظهرت حركة القرامطة، انضم إليها بنو سليم في جملة من انضم إليهم من بني ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، ودخلوا في جيوشهم في البحرين وعمان، وقدموا معهم إلى الشام، فلما تغلب الفاطميون في عهد المعز لدين الله، والعزیز بالله على القرامطة، انسحب هؤلاء إلى البحرين، وانفصل عنهم بنو هلال وبنو سليم ومالوا إلى الفاطميين. فنقلهم العزيز بالله إلى صعيد مصر، وأنزلهم في الضفة الشرقية من النيل، ولكنهم كانوا

¹ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ))، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس،

دار صادر، بيروت، (د.ت). ج 5، ص 234.

² ابن خلكان، مصدر سابق، ج 5، ص 234.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 6.

عنصرها هداما في البلاد، فعاثوا في الأرض فسادا، وأذوا الفلاحين أذى شديدا. فأما بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم في كتلة السكان في الصعيد، وأما بنو هلال فقد ظلوا بدوا. وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض، "وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم".¹ وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر. فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري على المستنصر باصطناعه، واستقدام مشايخهم، وتوليتهم أعمال إفريقية، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين فإذا ما انتصروا عليهم أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا بتلك البلاد، وأمر عرب البادية أهون من صنهاجة الملوك، وغذا هزموا فإنه بذلك يتخلص من عنصر في مصر، دون أن يتكلف أي مشقة في محاربتهم أو محاربة الصنهاجيين. واقتنع المستنصر الفاطمي بوجاهة هذا الرأي، وكان يتحرق شوقا إلى الانتقام من بني زيري المارقين. ولم يفكر هذا الوزير الفاطمي فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بإفريقية وأهلها.²

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء، بجموعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة، وكان الخليفة الفاطمي قد أقطعهم إفريقية والمغرب وقال لهم اليازوري: "قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي، العبد الآبق، فلا تفتقروا".³ وخرجت الحملة الهلالية الأولى من الديار المصرية سنة 442هـ/1051م، في نحو الخمسين ألف شخص، وإذ ذاك كتب اليازوري إلى المعز يقول: "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا، وأرسلنا عليها رجالا كهولا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا".⁴ ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل، ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف، بما في ذلك النساء والصغار.⁵ ونزل هؤلاء الأعراب بإفريقية "كالجراد المنتشر، لا يعمرون بشيء إلا أتوا عليه"،⁶ فانتشروا ببرقة ونواحي قابس وتونس، وأكثروا فيها الفساد والنهب وتكررت الوقائع بينهم وبين الأهالي والدولة، وتعددت النكبات.⁷

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 30.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 581.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 31.

⁴ نفسه.

⁵ مؤنس حسين، معالم، ص 168.

⁶ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 31.

⁷ الجليلي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 1، ص 342-343.

وقد سميت هجرة بني هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بني هلال، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين في طرابلس أول الأمر، معارك طويلة مليئة بالمغامرات والوقائع. واعتقد المعز بن باديس أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من صنهاجة، وتصور أنه يستطيع اتحاذهم جندا ويستغني بهم عن الكتاميين وغيرهم، ولهذا رحب بهم ودعا أحد رجالهم إلى الوفود عليه بقومه، فكان في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار. ولما دخلوا افريقية أصيب المعز بفرع شديد لما رأهم يخربون ويحرقون وينسفون المزارع، دون أدنى تفكير، فهم لا يرون في العمران إلا مجالا للغارة والنهب، ويقتلعون الأبواب ويستعملون أخشابها وقودا للنار، ويطلقون قطعانهم في المزارع تأكل المحاصيل دون تفكير. ولما تأكد للمعز خطره وتفاقم شرهم، حاول إخراجهم ولكن الأوان كان قد فات، لقد دخلوا بلاد افريقية وأنشبو أظافرهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم. ودارت معركة بينه وبين الهلالية قرب قابس في سنة 343هـ/1051م، فقضى بنو هلال على جيشه، فتراجع وتحصن في القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها، وعبثا حاول أن يصددهم عنها، واضطر في الأخير إلى التخلي لهم عن القيروان وانسحب بجنده وذخائره إلى المهديّة في سنة 446هـ/1054م. وبعد أن دخل الهلاليون إلى القيروان خربوها تماما كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وافريقية وجعلوها حطاما، وقتلوا من قدروا عليه وتفرق الباقون فعم الخراب البلاد.¹

وقضى المعز بن باديس السنوات الباقية من عمره حزينا في المهديّة، إلى أن توفي في أوائل سنة 454هـ/1063م، وخلفه ابنه تميم الذي اقتصر ملكه على شريط ضيق من الساحل يحيط بالمهديّة، ويشمل المهديّة وأحوازها، وسفاقس، وقابس، وجزيرة جربة.² وهذا هو الذي أطمع النورمان في سواحل افريقية، وكانوا قد غزوا صقلية في ذلك الحين وانتزعوها من المسلمين، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة افريقية. وقد طالّت الحروب بين تميم بن المعز والنورمان في البر والبحر، وتقلبت علاقاته معهم بين صلح وحرب، وبعد وفاة تميم بن المعز جاء ابنه علي بن تميم ابن المعز، وبدا بوضوح أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهديّة، فاستنجد بالمرابطين، وكانت دولتهم قد قامت في المغرب الأقصى. وبالفعل قام أسطول مرابطي بغزو صقلية سنة 516هـ/1122م. وبعد انصراف المرابطين جمع ملك النورمان روجر أسطولا ضخما وأعلن على المهديّة حروبا صليبية. وعجز الحسن

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 171.

² سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 585.

بن علي بن تميم بن المعز عن الدفاع عن بلاده، فسقطت المهديّة سنة 543هـ/1148م، وكذلك كل مدن ساحل افريقية وطرابلس في يد النورمان.¹ وبذلك كانت نهاية الدولة الزييرية الصنهاجية في افريقية.

6) الدولة الحمادية (395-547هـ/1004-1152م)

رأينا كيف انقسمت الدولة الزييرية الصنهاجية سنة 405هـ، إلى دولتين، الأولى في افريقية وعلى رأسها نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين، وهي دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي وقد انتهى أمر هذه الدولة على يد النورمان سنة 543هـ/1148م. والثانية كان على رأسها حماد بن بلكين ثم تولى أمرها أبنائه من بعده، وهم أبناء عمومة بني زيري، وقد اتخذوا مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بني حماد، وبلغ من ضخامة هذه القلعة أن نسب إليها بنو حماد، واصبح اسمهم في كثير من كتب التاريخ بني حماد أصحاب القلعة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بجاية، التي بنيت من جديد سنة 457هـ.²

يعود تأسيس الدولة الحمادية إلى حماد بن بلكين بن زيري حين ولاه الأمير باديس ابن أخيه أعمال الجزائر الشرقية وأقطعه مدينة أشير وضواحيها، ومنحه لقب نائب الأمير فيها، فطمح إلى إنشاء دولة في هذه الربوع. وأول ما قام به هو تشييده لقلعة يستقر بها مع أهله وكان ذلك سنة 398هـ وأحاطها في موقعها الجبلي المنيع بسور حجري سنة 405هـ، فكانت من أكبر البلاد قطرا. وقد نشأت فيها بالتدريج المساكن والأسواق والمساجد والبساتين كما اجتمعت إليها طرق التجارة من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب.³ كان حماد أول أمراء هذه الأسرة، وقد نجح في مد سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر ملوية، وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بابن عمه حمادا أميرا مستقلا على المغرب الأوسط سنة 406هـ/1015م.⁴

توفي الزعيم حماد سنة 419هـ، وكانت دولته قد اكتملت أركانها، فخلفه في الحكم ابنه القائد بن حماد (419-446هـ/1028-1054م)، وكان شبيها بوالده في التدبير وذا رعاية شديدة بشؤون دولته وقد وجد

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 172.

² المرجع السابق، ص 173؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 597.

³ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 136.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 174.

حكم أسرته أثناءها مدعما من قبل المعز بن باديس الذي ساعده في صد ومحاربة الأعراب، غير أن التفاهم لم يدم طويلا إذ سرعان ما تخالفا، ومن بين الأحداث التي اتسم بها عهد القائد حماد: ¹

-انشغاله بالدفاع عن إمارته ضد حمامة بن زيري المغراوي أمير المغرب الأقصى سنة 430هـ.

-دفاعه عن مدينة بونة سنة 542هـ عند محاولة الفرنجة محاصرتها.

-رفضه الدعوة الفاطمية سنة 434هـ الأمر الذي أدى إعلان الحرب بينه وبين المعز بن باديس.

-اتصاله ببغداد ومبايعته للخلافة العباسية.

كما اتسم عهده بانقطاع العلاقات الزيرية الفاطمية إذ ظهر ذلك في كره أهل المغرب للمذهب الشيعي وتشبثهم بالمذهب السني. ويبدو أن القبائل العربية التي أرسلها المستنصر للزحف على المغرب، لم تصب المغرب الأوسط على عهد القائد بسوء، مما جعله راضيا بدولته، مطمئنا على مصير مملكته، إلى أن هلك سنة 446هـ/1054م، بعد أن مكث في الحكم سبعا وعشرين سنة، فتولى بعده محسن بن القائد الذي لم يقدر له أن يمكث في الحكم إلا عدة أشهر. ولم يكن قصر مدة حكم محسن بمحض الصدفة القدرية، بل إنه مات مقتولا بسبب مخالفته لوصايا والده له، فإن القائد الذي عرف بأنه رجل دولة كان قد أوصى ابنه وخليفته بأمرين: ²

أولهما : أن يحسن إلى أعمامه، لاسيما عمه يوسف وريغلان اللذان كانا في جهاز الحكم.

وثانيهما : ألا يخرج من القلعة إلى تمام ثلاث سنين.

لكن محسنا لم يكذب يتولى الأمر حتى خالف الوصيتين معا، فقد عزم على عزل جميع أعمامه من أعمالهم، فلما ثار عليه عمه يوسف -عندما سمع بعزمه على عزله- خرج من القلعة لمحاربتة.

¹ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 137.

² عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 118.

وقد امتاز محسن -إلى جانب استبداده برأيه- بالقسوة الشديدة، فقد قتل من عمومته أربعة، وقد انتهت حياته على يد بلكين بن محمد بن حماد، الذي قدر له أن يرث الأمر بعده، وأن ينتقل الأمر به من يد أبناء القائد إلى يد أبناء محمد (أحد أبناء حماد الأربعة).¹

انتقل أمر بني حماد بعد مقتل محسن إلى ابن عمه بلكين بن محمد (447-454هـ/1055-1062م)، وكان جريئاً سفاكاً للدماء ذا إرادة وعزيمة جبارة مؤثراً العزلة والانفراد عن الناس مولعاً بالغارات، وكان لا يخرج إلا دارعاً ولكثرة غزواته أبغضته الرعية وانحرف عنه عمال بسكرة من آل رومان فنكل بهم وقتل أميرهم جعفر سنة 450هـ/1058م، وعاقبهم عقوبة مؤلمة، وجعل أمر بسكرة بعدهم لبني سندي من أهلها إلى أن انقرضت دولتهم. وقد أكثر بلكين من زحفه على المغرب الأقصى حتى استولى على عاصمته فاس في سنة 454هـ/1062م، وقاتل هنالك المصامدة وأخرج منها يوسف بن تاشفين منهزماً إلى الصحراء وأوغل بلكين في ديار المغرب. قتل بلكين بن محمد سنة 454هـ على يد أحد أقرائه وهو الناصر بن علناس الذي تسلم الحكم وأضحى أشهر أمراء الأسرة الحمادية بما شيده من قصور خارج القلعة وبما شيده كذلك من مساجد ومباني.²

كان وصول الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م) إلى الحكم -على النحو المذكور- فاتحة عهد جديد من الاستقرار النسبي في تاريخ الدولة الحمادية. ويعتبر وصوله نقلاً للسلطة إلى الفرع الثالث من أبناء حماد (علناس). ولقد جاء هذا الانتقال انتقالاً بالأسرة من عهد البناء السياسي إلى عهد البروز الحضاري الذي مثله أبناء علناس (وأصله علا الناس أو علاء الناس). كان علناس جريئاً على سفك الدماء، من أكثر أمراء وملوك الدولة الحمادية دهاء وحزماً بل أعظم أمراء هذه الدولة، من الناحية الحضارية، وكان له شأن، جعل آل حماد يعترفون على عهده لعظم شأنه. كما اتسم حكمه بأوج رفعة المملكة البربرية التي أسسها حماد.³

كما قام الناصر باحتلال جبل بجاية وتأسيسه لمدينة سماها باسمه الناصرية سنة 460هـ/1068م، وعرفت المدينة في التاريخ باسم بجاية، وقيل أن الناصر أمر رعاياه ببناء المدينة وأعمارها مقابل إعفائه من دفع الضرائب،

¹ عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 118.

² الجيلاي عبد الرحمن، مرجع سابق، ج 2، ص 368.

³ عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 124-125.

وقد شيد الأمير قصورا عظيمة سمي أحدها بقصر اللؤلؤة واستقر الناصر ببجاية سنة 481هـ/1088م. ولما توفي في سنة 481هـ/1081م، خلفه على رأس الإمارة ابنه المنصور (481-498هـ/1088-1105م).¹

كان المنصور صغير السن عندما ارتقى إلى العرش سنة 481هـ/1088، خلفا لأبيه الناصر، وقد وصلته كتب الملوك ورسلمهم بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك، منهم يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز (جده للأمم). واقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرياسة. وقد حقق مثل أبيه إنجازات عديدة، وكان ملكا مقداما، حكم البلاد بنفسه، بحماس شديد، وكان كاتباً وشاعراً. وبالرغم من وجود بنو هلال الذين ما فتئوا يعيشون في الأرض فسادا، فقد مكث مدة من الزمن بالقلعة، ثم غادرها سنة 483هـ/1090م وانتقل إلى بجاية. وهو الذي حضر ومدن أسرة بني حماد بعد أن كانت قبل ذلك شبه بدوية. وبفضل ذوقه المرفه شيد المباني ودور الصناعة والقصور، وأجرى الماء في الحدائق والبساتين،² "فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون".³

وفي عهده عرفت مدينة بجاية ازدهارا كبيرا، وأصبحت عاصمة الحماديين ومركزا ثقافيا وإشعاعيا هاما في المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة، وكان يقصدها كثير من الشعراء والكتاب والعلماء والمتطالعين في جميع مجالات المعرفة. ويذكر أنه أقام بها العالم الصوفي سيد أبو مدين شعيب الغوثي المدفون بتلمسان. وقد عرف عهد المنصور أيضا بعض الأحداث كمحاربتة للمرابطين وبعض البطون الزناتية، كما قام بغزو مدينة تلمسان سنة 496هـ/1102م حيث وصل إلى منطقة معروفة بوادي الصفصاف ضواحي تلمسان في سنة 496هـ ثم توجه نحو تلمسان ففتحها.⁴

¹ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 139.

² إدريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992. ج 1، ص 325.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 358.

⁴ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 139.

وفي سنة 498هـ/1104م، قدر لحياة المنصور أن تنتهي، وهو الذي نجح في إعطاء الدولة الحمادية رواءها وأمنها امتداداً لعهد أبيه، وسط ظروف بالغة الصعوبة، وذلك بعد عودته من حربه الأخيرة ضد المرابطين بسبعة أشهر، وولي الأمر بعده ابنه باديس المكنى بأبي معد.¹

يعتبر باديس سابع حاكم للدولة الحمادية، ولم يكن حكمه طويلاً، إذ مات في نفس السنة التي تولى فيها الحكم. وكان عظيم السطوة شديد البأس سريع البطش. ولم يدون المؤرخون عنه من الأعمال ما يستحق التدوين إلا ما كان من قبل التولية والعزل. فلم يجلس على العرش حتى أمر بالقبض على عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه فاستصفى أمواله ثم قتله. ونكب عامل بجاية، وعزل أخاه العزيز عن مدينة الجزائر، ثم نفاه إلى جيجل.² وقد عقد النية على القيام بما هو أردأ، فقد توعد أمه بالقتل، لكن لم تطل مدته، فتوفي في سنته التي تولى فيها الحكم وهي سنة 498هـ/1105م، فلم تبكه أمه، ويقال أنها وضعت له السم.³

تولى الأمر بعد باديس أخوه العزيز بن المنصور (498-515هـ/1105-1121م) -الذي كان من جملة من شملتهم إساءته- حيث استدعي من منفاه بجيجل ليقود البلاد بعد أخيه باديس. جلس العزيز على العرش وسنه سبعة عشر سنة. فخصاله متناقضة تماماً لخصال أخيه. فكان رصينا هادئاً ثابت البصيرة حازماً ماهراً. وقد صالح خصومه بمصاهرتهم، فأمن بذلك ثورات زناتة الحاقدة على بني حماد وعداوة الزيريين الهاجعة نارها تحت الرماد. وكاتب ملوك زمانه وسالمهم. فساد مملكته الهدوء والاطمئنان والرخاء. وكان يحب العلم ويلد له أن يحضر بنفسه مجالس المناظرة بين العلماء.⁴

ولم يكدر صفو هذا الهدوء والاطمئنان إلا حدثان هما :

الأول : قام بنو هلال في سنة 512هـ/1118م، بغزو القلعة فنهبوا وأضروا بأهلها.

الثاني : خروج والي تونس عن الطاعة وإعلانه التمرد على الدولة الحمادية.

¹ عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 147.

² المليبي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 245.

³ الطمار محمد، مرجع سابق، ص 124.

⁴ المرجع السابق، ص 125.

وقد شهدت السنوات الثلاث الأخيرة من حكم العزيز بروز المهدي بن تومرت مؤسس الحركة الموحدية، حيث كان عائدا من المشرق بعد رحلة علمية دينية قضى فيها عشر سنوات، فنزل بجاية ووجد بها مظاهر الحياة الرخيصة المبتذلة التي تنبئ عن تدهور قريب. فقد شهد الرجال في أزياء لا تليق إلا بالنساء، ثم حضر عيدا فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين والمتكحلين ما لا يحل. وقد أدى به حبه النهي عن المنكر إلى استعمال العصا أحيانا. وقد أظهر ببجاية تدريس العلم والوعظ، فاجتمعت عليه الناس ومالت إليه القلوب. فخاف العزيز من اجتماع الناس عليه، فأمر بإخراجه من بجاية، فأقام بضيفة لا تبعد كثيرا عن مدينة بجاية يدرس العلم ويعقد مجالس الوعظ، ويشعل نيران الثورة ضد الحماديين والمرابطين. وقد أحس العزيز بالخطر الذي يكمن غير بعيد عن عاصمته، فحاول القبض على ابن تومرت، فلم يطمئن المهدي إلى البقاء في هذا المكان فرحل إلى المغرب.¹

وفي سنة 515هـ/1121م، مات العزيز بن المنصور فورث الحكم ابنه يحيى (515-547هـ/1121-1152م)، الذي مثل عهده انهيار الدولة وقبولها للأفول، وكان حكمه آخر أيام الدولة الحمادية. كان يحيى بن العزيز بن المنصور أديبا مثل أبيه، رصينا لكنه مغرم بالصيد واللهو منهمك في شهواته. وكان له ولد ولاء الأمر من بعده وفوض إليه الأمور في حياته. وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانته ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه، فقد كانت تعيش أسباب الانهيار والانحطاط، ومن البديهي أن يحيى المنهمك في اللهو والملذات لم يكن مؤهلا لإنقاذ مثل ذلك الوضع الميؤوس منه.² مما سمح باكتساحها من قبل عبد المؤمن بن علي الموحد بعدما استولى على المغرب الأقصى، ثم على مدينة الجزائر وبجاية ثم قلعة بني حماد سنة 547هـ/1152م، ونقلوا يحيى إلى مراكش، وهكذا انتهت دولة بني حماد.³

7) قيام دولة المرابطين في المغرب (463-500هـ/1071-1107م)

في الوقت الذي كان فيه بنو زيري في صراع متواصل مع الأعراب من جهة، والنورمان الغازين لسواحلها من جهة أخرى، كانت هناك قوة جديدة أخذت تنبثق في أقصى جنوب المغرب الأقصى، فيما وراء جبال

¹ عويس عبد الحليم، مرجع سابق، ص 152-153.

² إدريس الهادي روجي، مرجع سابق، ج 1، ص 429.

³ المليي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 246؛ مؤنس حسين، معالم، ص 174.

الأطلس، وما لبثت أن تولدت منها دولة المرابطين الكبرى التي شملت النصف الغربي من بلاد المغرب، وأنقذت الإسلام الذي كانت تتهدده المسيحية بإسبانيا، ودام عهدها نحو قرن من الزمان، من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجري.

لقد قدم عرب بني هلال وبني سليم في حشود هائلة من مصر يدمرون في طريقهم عمران طرابلس وأفريقية، ويقضون على معالم الحضارة في هذه البلاد، بينما خرجت قبيلة لمتونة الصنهاجية البربرية من جوف الصحراء، واستقرت في المغرب الأقصى حيث أسست دولة كبرى هي دولة المرابطين.

الجدور التاريخية للمرابطين

يعود أصل المرابطين إلى قبيلة صنهاجة الجنوب الضاربة في الصحراء. وصنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر وإنهم أعظم قبائلها بالمغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر. وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وتارجا وملطة وجزولة وبنو وارث وبنو دخير وبنو زيا وبنو موسى وبنو قشتال وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوق الحصر. وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان، إحداهما دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، والأخرى دولة الملتمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس.¹

سميت دولة المرابطين بدولة الملتمين نسبة إلى اللثام الذي يضعه رجال بعض قبائلهم على وجوههم. وقد أصبح اللثام شعارا لهم، يميزهم عن سائر قبائل المغرب، وهم يتخذونه منذ طفولتهم، فيعتقدون أن ظهور الفم عورة يجب إخفاءها، فلا يتركون اللثام ليلا، أو نهارا. بل إنهم لا يعرفون بعضهم البعض إلا بهذا اللثام، ولا يستطيعون التمييز بينهم إلا به. ولا يميز رجل من وليه، ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك، إذا قتل منهم القليل، وزال قناعه، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم من جلودهم. مع العلم أن الرجال فقط هم الذين يتلثمون، أما نساؤهم فهن حواسر الوجوه.² ويعتقد البعض أن إطلاق اسم الملتمين في

¹ السلاوي، مرجع سابق، ج 1، ص 98.

² دندش عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430-515هـ/1038-1121م)، دار الغرب الإسلامي، 1988. ص 29.

بدايته كان خاصا بقبيلة لمتونة ثم توسع وأصبح شعارا لكل من حالف لمتونة ودخل تحت سيادتها.¹ وإضافة إلى ما ورد، فقد وردت آراء وتفسيرات كثيرة حول أسباب اتحاذهم اللثام. استوطن المثلثون المنطقة الصحراوية الممتدة من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلس غربا، ومن جبال درن شمالا إلى أواسط الصحراء جنوبا.²

ظروف قيامها

لقد أرغمت الظروف السياسية والاقتصادية التي كان يعيشها المغرب الأقصى والسودان الغربي، قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة على التحالف فيما بينها، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر القبائل. وكان هذا الحلف يرمي إلى مدافعة ملك غانة في الجنوب، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت الواقعة إلى الشمال الشرقي من تمبكتو شمال نهر النيجر. ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التي كانت أقدر على محاربة السودان؛ لأن ديارها كانت أقرب إلى ديار السودان. فتولى أمر صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي، وكان متعظشا إلى علوم الدين التي حرم منها هو وقومه في هذه البقاع الصحراوية، فأراد أن يسعى في طلب العلم والوقوف على أصول الدين الإسلامي في مدارس القيروان وفاس، والاستزادة من العلوم الدينية، فخرج من بلاده في سنة 427هـ/1036م، للحج أولا، ثم لارتياح المراتز الثقافية في المغرب بحثا عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيهها دينيا سليما. فلما عاد من الحج سنة 428هـ، نزل بالقيروان، وقد كانت في هذا الوقت قد نبذت المذهب الشيعي، وعادت إلى السنة، واسترجعت مكانتها القديمة كقاعدة للمالكية في المغرب. وأتيح ليحيى بن القيروان سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين، هو الفقيه أبو عمران موسى بن الحاج الغفجومي الفاسي، ويبدو أن يحيى بن إبراهيم تأثر بتعاليم أبي عمران، واجتذبه سحر بلاغته وفصاحته وتفقهه في الدين. فتاقت نفسه إلى أن يرى في بلاده فقيها مثله، يلقي دروسه في منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم في الدين.³

تحدث يحيى بن عمر إلى أبي الفقيه أبي عمران الفاسي في إرسال أحد تلاميذه معه، ولكن أحدا من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة لبعده المسافة وخطورة المغامرة. فكتب أبو عمران الفاسي له كتابا إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعاملين في سجلماسة واسمه وجاج بن زلو اللمطي، إحدى قبائل صنهاجة الصحراء. وكان

¹ الصلابي علي محمد، فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006. ص 9.

² نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1985. ص 13.

³ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 605-606.

وجاج فقيها ذا مكانة كبيرة، ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة نظرا لعلمه بصعوبة قيادة الجداليين، فكتب لذلك تلميذا شابا من تلاميذه يسمى عبد الله بن ياسين الجزولي.¹

اسمه الكامل هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي،² فالرجل أصلا من أهل الصحراء، من قبيلة جزولة، أخت جدالة إن لم تكن بعضا منها أو هي نفسها. فابن ياسين صحراوي مغربي (بربري) أصيل، أما عن مسقط رأسه فهو قرية تماما نوات في طريق صحراء غانة من غرب إفريقيا، على تخوم بلاد السودان.³ ولم يتردد ابن ياسين في قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته في الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحي الذين حرموا من نعمة المعرفة والعلم.⁴

وإلى جانب علمه بشؤون الدين، كان عبد الله بن ياسين يتمتع بصفات أهله لتحقيق النجاح لدعوته من بعد نظر ونفاذ بصيرة. وصحب يحيى بن إبراهيم وتوجها إلى بلاد جدالة التي فرحت بمقدمه ونزوله بين ظهرائهم. غير أن فترة الترحيب لم تستمر طويلا؛ لأنه وجد أكثر المثلثين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين، وقد غلب عليهم الجهل، كانوا يعملون ببعض العادات السيئة التي ورثوها من آبائهم وقد حرّمها الإسلام، فقد وجد رجالهم يتزوجون بأكثر من أربع نساء، وبعضهم يرتكب أفعال الزنا.⁵ وبدأ ابن ياسين تغيير العادات التي ألفوها من الانهماك في الملذات، وجهلهم بأحكام الدين، وذلك بفرض تعاليم وأحكام تخالف ما درجوا عليه، ومن هنا بدأت الجفوة والإعراض، وخاصة في صفوف الزعماء والنبلاء الذين رأوه ينتقص من حقوقهم ويضع حدا لجبروتهم وعدوانهم وينشر المساواة بين الموالي والسادة. ومع تبرمهم وتدمرهم من هذه التعاليم، فقد احتملوا وجوده رهبة من زعيمهم يحيى بن إبراهيم، فلما توفي يحيى لم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجة من الاعتزال عن ابن ياسين، وترك الأخذ عنه. وقد ساءت العلاقة بين هؤلاء السادة وبين ابن ياسين حتى أنهم انتهبوا داره وهدموها. ويبدو أن الأمير يحيى بن إبراهيم عجز عن حماية ابن ياسين والدفاع عنه مما اضطره إلى

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 183.

² الصلابي، فقه التمكين، ص 21.

³ عبد الحميد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995. ج 4، ص 174.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 606.

⁵ نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين، ص 22.

الارتحال إلى مكان يستطيع فيه تأدية واجبه الديني، ولم يكن هذا المكان إلا جزيرة منعزلة بالسنگال، وصحبه بعض مرديه وعلى رأسهم يحيى بن إبراهيم.¹

خرج عبد الله بن ياسين قاصدا بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدي رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللمتونيين الصناهجة. وأبى رئيس صنهاجة إلا أن يرافقه، ورحل معهما أبو بكر بن عمر، شقيق يحيى بن عمر. ومعهما سبعة نفر من جدالة،² فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها، "فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة".³ وهناك أسس عبد الله بن ياسين رباطا، والرباط من المرابطة، أي ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين،⁴ من قوله تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ }.⁵ فالرباط في الأصل هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو في الثغور، ومنها جاء تصريف مرابط، أي الملازم لثغر العدو أخذًا من قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }.⁶ والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعدادا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية، ويسمى من يسكنه مرابطا.⁷ وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التي يقوم بها الأمراء والخلفاء.⁸ والحقيقة أن ابن ياسين بنى مدينة خاصة به وأنصاره، هي التي عرفت باسم "ارتني"، والتي تقرر في عمارتها اتباع شروط المدينة الإسلامية على عهد عمر بن الخطاب، وهو ألا يرتفع فيها بناء بعضهم على بعض.⁹

¹ حسن حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي بمصر، 1980. ص 20.

² السلاوي، مرجع سابق، ج 1، ص 98.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 374.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 607.

⁵ سورة الأنفال، الآية 60.

⁶ سورة آل عمران، الآية 200.

⁷ Rabbat Nasser, **Ribat**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1995. vol. VIII, pp. 493-506.

⁸ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 609.

⁹ عبد الحميد سعد زغلول، مرجع سابق، ج 4، ص 181.

في هذا الرباط بدأ ابن ياسين الدور الإيجابي في تأسيس الدعوة ونشرها، وذلك بإعداد تلاميذه بالتربية الدينية الصارمة. وقد أصبح هذا الرباط نواة مجتمع المرابطين، وذاع صيته في المناطق المجاورة، "فكثر الوارد عليهم والتوابون"¹. ولم يكتف ابن ياسين بنشر دعوته ومبادئه بين تلاميذه وأتباعه في الرباط بل أرسل البعوث إلى القبائل المختلفة تنشر مبادئه وتعرفهم بحياة الرباط التي يحيها ابن ياسين وأتباعه حتى إذا كثرت أتباعه وصاروا منفذين لأوامره أطلق عليهم لقب المرابطين. "ولم تمر عليه إلا أيام حتى اجتمع عليه من تلاميذه نحو ألف رجل من أشرف صنهاجة"²، فانتقل عبد الله بن ياسين من الدور النظري في تلقين أتباعه مبادئ دعوته إلى دور التطبيق والتنفيذ حين أعلن ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك في النداء الذي وجهه إلى رؤسائهم³.

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات صارمة، وقد استطاع في أمد وجيز، أن يؤلف جيشاً محارباً جعل على قيادته صاحبه يحي بن عمر، وكان يحي هذا مخلصاً لدعوة ابن ياسين، متفانياً في الطاعة له، وهكذا كون ابن ياسين جيشاً قوياً، وعندئذ شرع في نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة. وقال لأتباعه: "إن الفال لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فخرجوا بنا لذلك"⁴. وكان ابن ياسين يأمر أتباعه بجهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة على أن ييثوا الإغذار والإندار سبعة أيام، فلما عيس من إجابتهم، شرع في الغزو، وذلك في صفر سنة 444هـ/جوان 1052م⁵، وبدأ بجدالة فأوقع فيهم واقعة قال فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاماً حسناً. وسرعان ما خضعت لمتونة ومسوفة وجدالة وملطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى نهر درعة، وأذعنت صنهاجة لطاعته، واستقاموا على الإسلام الصحيح، فسماهم بالمرابطين⁶.

وفي سنة 445هـ، خرج المرابطون من الصحراء في أعداد ضخمة، واتجهوا إلى درعة، فاصطدموا بجيش وانودين أمير مغراوة، وصاحب سجلماسة ودرعة، فانهزم هزيمة نكراء، وقتل في المعركة، ودخل المرابطون مدينة

¹ ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 125.

² نفسه.

³ حسن حسن علي، مرجع سابق، ص 21.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 375.

⁵ عبد الحميد سعد زغلول، مرجع سابق، ج 4، ص 195.

⁶ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 610.

سجلماسة، وأصلحوها من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، وبعثوا عمالهم على الصدقات. ثم تدفق المرابطون في موجات كاسحة إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعة الأوسط وتافيلالت. غير أن زناتة، لم تتحمل غزو الصنهاجة، فثارت تافيلالت، وخرجت سجلماسة على المرابطين، فأعلن عبد الله بن ياسين الجهاد، وسار إلى قتال زناتة، ولكن قائده يحيى بن عمر قتل في إحدى المعارك سنة 447هـ، فخلفه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر، ثم تدعمت جيوش المرابطين بانضمام جزولة وملطة، وقاتلوا الشيعة الرافضة في تارودانت، "وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقي منهم إلى مذهب السنة والجماعة"¹، وتمكنوا من افتتاح ماسة، وبذلك استولوا على إقليم السوس بأسره سنة 448هـ. وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى واحات درعة فنجح في استرداده فيما بين عامي 448هـ و 449هـ. ثم دخلوا مدينة أغمات وما يليها سنة 449هـ، وبعدها غزوا تادلا في سنة 450هـ. ثم دعا المرابطون إلى جهاد برغواطة وهم قبائل شتى لا يجمعهم أب واحد، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامسنا، وشرع لأتباعه ديناً وشرائع سخيفة.² ودارت بين الفريقين ملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير، وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي مهدي المرابطين، فكان فيها شهادته سنة 451هـ/1059م.³

ولما توفي ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو، ولكنه توفي بدوره في عام 451هـ، ولم يخلفه رئيس آخر، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين، وكانوا يوجهون الأمراء ويجركونهم، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف.⁴

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن عمر وقبيلته لمتونة، قد استقر، وطاعت له كل قبائل صنهاجة الصحراء، أي أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته، ووجد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد في سبيل الله، وقاد خطواتهم الأولى في الانتصار على الزناتيين في الشمال وقبائل افريقيا المدارية السوداء في الجنوب. وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب السودان وأبواب التوسع شمالاً. وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة، وأشعرها بقوتها وأعطاهم غايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة، ورسم لها الطريق

¹ السلاوي، مرجع سابق، ج 1، ص 103.

² نفسه.

³ المرجع السابق، ج 1، ص 104؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 611-612.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 612.

لتحقيق هذه الغايات والأهداف. ومعنى ذلك أن الإسلام وصل إلى شعوب افريقيا السوداء، وذلك حادث تاريخي عظيم الأثر والمعزى.¹

بعد عبد الله بن ياسين، سار أبو بكر بن عمر بحركة المرابطين في طريقها، وكان يستعين في عمله بالبارزين من قرابته وأهل بيته، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين، وكان آنذاك شابا واسع الطموح. وحوالي سنة 461هـ/1068م، اتخذ أبو بكر بن عمر من قرية أغمات قاعدة سياسية وعسكرية لسلطان المرابطين، ثم شرع في بناء مدينة مراكش، وما لبثت المباني الرئيسية في المدينة أن نمت ومضى الناس ينشئون البيوت والأسواق، وبذلك أضاف هذا الرجل إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام، وأشهرها في الدنيا. وبينما كان أبو بكر يتابع ويراقب العمل في بناء مدينته الجديدة، إذ بخبز مزعج يصله، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لمتونة في الصحراء وأنزلت بها مذبحه، فقرر العودة مسرعا إلى منازل القبائل الصنهاجية في الصحراء للإصلاح بين القبيلتين ورأب الصدع. وقبل رحيله ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين خليفة له في رئاسة قومه، وترك معه ثلث القوة المرابطية، وعهد إليه قيادة جيوش المرابطين في المغرب، وفوض إليه قتال زناتة. وأخذ أبو بكر بن عمر الثلثين ومضى إلى منازل لمتونة وجدالة وراء الصحراء سنة 463هـ/1071م.²

قام يوسف بعدة غزوات ضد مواطن قبيلة زناتة، فافتتح مدينة فاس، وأكمل بناء مدينة مراكش واتخذها عاصمة للمرابطين بدلا من أغمات، ثم مضى لمحاربة غمارة ففتح كثيرا من حصونها وقلاعها، ونازل بلاد بني مراسن ونزلاوة وورغة، وبعد أن وطد أبو بكر بن عمر الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين قومه، عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته. ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه، ولما قابل أبا بكر بن عمر ابن أخيه ونائبه يوسف "سلم عليه راكبا على دابته ولم تكن تلك عادته قبل... فتعجب الأمير أبو بكر بن عمر مما رأى من ضخامة ملكه ووفور عساكره وترفيه جنوده".³ ثم مضى إلى الصحراء في سنة 465هـ، حيث استشهد في إحدى معاركه ببلاد السودان.⁴

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 186.

² مؤنس حسين، معالم، ص 188.

³ ابن الخطيب (محمد لسان الدين (ت 713هـ))، الحلل المشوية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، 1329هـ. ص 14.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 614.

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالي، مركزه سهل مراكش، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين، والثاني يعمل في افريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر. ونظرا لبعد الشقة بين القسمين، لأن الصحراء تفصل بينهما، فقد مضى كل من القسمين في طريقه يعمل بنشاط، فأما القسم الشمالي الذي يقوده ابن تاشفين، فهو الذي قاد دولة المرابطين وحقق لها أمجادها. وأما القسم الثاني الجنوبي فقد تابع مسيرته ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في افريقيا المدارية، وكان له دور عظيم في ذلك المجال.¹

إذا كان عبد الله بن ياسين يعتبر مؤسس حركة المرابطين وأبوها الروحي، فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين. وقد ورث عند توليه قيادة المرابطين في سنة 463هـ/1071م، كل النتائج السياسية التي حققها قبله في المغرب عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير المسلمين، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذ. وجعل من سجلماسة قاعدة جنوية لدولته، فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصادرين من الصحراء. واهتم كذلك بمراكش وسهلهما، فاتسع العمران فيها، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة، وكثرت فيها المساجد والمنشآت. وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجبون من أهلها المغارم. وشيئا فشيئا مد سلطانه إلى الشمال واحتل وادي سبو، وفاس، وأصلحها بعد دخوله إليها، وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين، وأدار عليها سورا حصينا، وأكثر من إنشاء المساجد فيها. وعلى العموم قام يوسف بن تاشفين بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط، ومن ساحل المحيط إلى نهر ملوية، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر التي ابنتى فيها مسجدا جامعاً ما زال باقيا إلى اليوم، وكانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقا.²

وبعد أن أحكم قبضته على المغرب الأقصى، ووصل إلى ذروة قوته بالتمكين لسلطانه السياسي على البلاد بعد اثنتي عشر سنة من العمل الدؤوب، والكفاح المرير الذي خاضه على رأس جيش المرابطين، دخل مرحلة أخرى من الجهاد والكفاح. حيث استنجد به بعض ملوك الطوائف في الأندلس، وعلى رأسهم المعتمد بن

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 188.

² مؤنس حسين، معالم، ص 189-191.

عباد صاحب اشبيلية، كمنقذ لأرض الإسلام من وقوعها في أيدي النصارى، وبعد استشارة يوسف لأهله ومن حوله أشاروا عليه بالاستجابة لهذه الدعوة لأنها تتفق مع مبادئهم من نصره الدين والدفاع عنه. فانطلق يوسف بن تاشفين على رأس قواته صوب الأندلس، ودارت بينه وبين الأذفونش رئيس المعسكر المسيحي عدة مكاتبات قبل بدء المعركة، ثم كان لقاء ابن تاشفين على رأس جيش المرابطين والأندلسيين في مواجهة الأذفونش على رأس قواته المسيحية في سهل الزلاقة في عام 479هـ/1086م. وقد أفاضت المصادر في وصف المعركة، وذلك لأهميتها وما ترتب عليها من نتائج. وقد فتحت هذه المعركة عين القائد المرابطي على مدى الترف والثراء الذي يحياه ملوك الطوائف، وخاصة بعد أن قام بزيارة إشبيلية. وبالرغم من نصح يوسف بن تاشفين لأمرء الأندلس بالاتحاد والتضامن في دفع الغزو الخارجي، إلا أنهم لم يستجيبوا لهذا النصح مما أدام ضعفهم ودفع يوسف بن تاشفين إلى العبور مرة ثانية إلى الأندلس سنة 480هـ/1088م، للقضاء على العدو الخارجي المتمثل في الجيوش المسيحية المتربصة، وفي العدو الداخلي المتمثل في أمرء المسلمين الضعفاء الذين يحكمون البلاد، حتى صارت الأندلس تابعة لسلطة المرابطين، كما أن نصر المرابطين أوقف التيار المسيحي من الاستمرار في اقتطاع المدن الإسلامية. وبجانب ذلك فإن تبعية الأندلس للمرابطين ومن بعدهم الموحدون أسهم في الازدهار الحضاري الذي عاشه المغرب الأقصى.¹

وفي عام 482هـ/1089م، عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث، وعبوره هذه المرة دون طلب نجدة أو استغاثة كما حدث في الجوازين السابقين. وسار توا إلى طليطلة لانتزاعها من المسيحيين، ولكنه تراجع أمام أسوارها المنيعة، وارتد نحو الجنوب، كل ذلك ولم يتقدم أحد من الأندلسيين لمساعدته ضد عدوهم اللدود. ثم قام بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة الذي دخل في طاعته، وتركه ليسد الثغر الأعلى الأندلسي المهدد بالخطر، وفي رحلة عودته إلى المغرب أخذ معه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية المعزول، حيث قضى بقية عمره في أعماق جنوبي مراكش.²

وبعد أن أتم الأمير يوسف أخذ البيعة لخليفته الأمير علي، واطمأن إلى حسن سير الإدارة في الأندلس قفل عائدا إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش. ولم يتمتع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بثمرة هذه الانتصارات

¹ حسن حسن علي، مرجع سابق، ص 28-29.

² نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين، ص 117-152.

فقد أصابته العلة في سنة 498هـ/1104م. فلم يزل مرضه يشتد حتى توفي في مستهل سنة 500هـ/1106م، ودفن بقبر بسيط في حاضرة ملكه.¹

خلف يوسف بن تاشفين ابنه علي وكان على شاكلة أبيه من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لأمة الإسلام، وكان أميراً حسن التكوين والتدريب. ولد في المغرب وترى في الأندلس وشب أميراً عالماً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية، وسار في آثار أبيه في كل ميادين العمل، وكان أهم ما شغل باله واستنفد جهده، الجهاد في الأندلس. وبينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدي الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك. وقد خلف علي بن يوسف هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين، وكان شاباً حسن الاستعداد، ولكن الظروف التي تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم.² وتوالت الهزائم على أيدي عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، واستغل أهل الأندلس هذه الفرصة، وأعلنوا ثورتهم في الأندلس، فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاته سنة 539هـ إلى دويلات للطوائف، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية.

وقد أسهبت المراجع والدراسات الحديثة في ذكر العوامل والأسباب التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين، بعد دخول الموحدين إلى عاصمتهم مراكش سنة 541هـ/1147م.

¹ دندش عصمت عبد اللطيف، مرجع سابق، ص 128.

² مؤنس حسين، معالم، ص 199-200.

8) دولة الموحدين (515-668هـ/1121-1269م)

لقد نشأت دولة الموحدين بفضل الدعوة التي قام بها المهدي بن تومرت حوالي سنة 515هـ، وهي دعوة دينية قائمة على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد قامت هذه الدعوة في المغرب الأقصى بين قبائل المصامدة التي كانت تقطن إقليم السوس الأقصى، وكانت هذه القبائل تطمح إلى تأسيس دولة تضاهي دولة المرابطين. ولذلك اعتبر بعض الباحثين أن قيام دولة الموحدين هو فوز القبائل الجبلية على قبائل الرحل الصحراوية، أو بمعنى أصح انتصاراً لزناتة على صنهاجة.¹ وإذا كان هدف هذه الحركة أو الدعوة هو تحقيق وحدة إسلامية شاملة، فيوجد بعض المؤرخين والدارسين من اتهم ابن تومرت بانحراف عقيدته، وأن الأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته باطلة، وإن أعماله ظالمة وجائرة.² فمن هو المهدي ابن تومرت؟ وماهي حقيقته؟ وما هي الأسس التي قامت عليها دعوته؟

المهدي بن تومرت

هو محمد بن عبد الله بن تومرت، المنعوت بالمهدي الورغي،³ ويكنى بأبي عبد الله رغم أنه لم يتزوج ولم ينجب ولداً، وهي عادة عربية في تكنية من لا أبناء له تفاقلاً أو تعظيماً.⁴ أما نسبه فيعود إلى قبيلة ورغة وهي بطن من بطون القبيلة البربرية الكبرى مصمودة التي تشكل نسبة هامة من سكان المغرب الأقصى. وتذكر بعض المصادر أن نسبه عربي وينتهي به عند الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)،⁵ ودار جدال كبير بين المؤرخين والباحثين حول صحة نسبه العربي، فمنهم من أثبت ذلك، ومنهم من وضعه موضع شك كبير، وقال إنه محض ادعاء.⁶ ولد ابن تومرت سنة 485هـ في ضيعة من بلاد السوس تعرف بإيجلي أن وارغن، بين أحضان أسرة من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة ولكنها كانت على شيء من المكانة الدينية "أهل نسك

¹ نجار ليلي أحمد، المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي دراسة تاريخية وحضارية (580-595هـ/1184-1198م)، بحث مقدم لنيل الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1989. ص 36.

² الصلابي علي محمد محمد، دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، 1998. ص 3.

³ ابن خلكان، مصدر سابق، ج 5، ص 45.

⁴ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 75؛ النجار عبد المجيد، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983. ص 23-24.

⁵ المراكشي عبد الواحد (ت 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963. ص 245؛ ابن خلكان، مصدر سابق، ج 5، ص 46؛ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 75.

⁶ النجار عبد المجيد، مرجع سابق، ص 24-29؛ الصلابي، دولة الموحدين، ص 7-9.

ورباط"،¹ وكان قومه يعرفون بإيسرغينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة.² نشأ ابن تومرت في إقليم السوس الواقع في جنوب المغرب الأقصى، وهي منطقة جبلية في أغلبها، وكان يسكنها في القرن الخامس قبائل بربرية تنتمي أغلبها إلى قبيلة مصمودة الكثيرة الفروع. وقد عرفت تلك القبائل بشدة البأس وقوة الشكيمة مع عصبية مستحكمة. وتغلب على طباعهم السداجة، وقوة الإيمان، والاعتقاد في القوى الخفية، وتعاطيهم للعرافة والتنجيم. ولم تكن بإقليم السوس في القرن الخامس الهجري وما قبله مراكز علمية مرموقة تشع على أهل المنطقة، مما جعل أهلها يتصفون بشيء من البساطة في الفهم الديني أصولاً وفروعاً. وقل منهم من كان يرتفع علمه إلى مستوى العلم الإسلامي الحق.³

وكان ابن تومرت منذ صغره يميل إلى العبادة والدراسة، فحفظ القرآن في قريته، ثم غادرها حوالي سنة 501 هـ لطلب العلم، فتوجه إلى الأندلس حيث أخذ على مشاهير علمائها. ثم انتقل إلى المشرق، فلقي بعض تلامذة أبي حامد الغزالي ببغداد، واطلع على بعض مؤلفات هذا الأخير وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين في الاعتقاد وأصول الدين، والمستصفي في أصول الفقه.⁴ ولقي عدداً من العلماء وفحول النظر فاستفاد علوماً جمة، ومهر في الحديث والأصول والجدل، وأخذ بعقائد الأشعري وأضاف إليها من عقائد الشيعة الامامية القول بالإمام المعصوم.⁵

ولا يستبعد أنه أدرك أثناء رحلته إلى المشرق العربي، ما أصاب تلك البلاد من بلايا، نتيجة هجمات الصليبيين، وأن غيرته على الإسلام دعتة يفكر في إصلاح ما أدخل فيه من بدع، ويشعر بضرورة توحيد صفوف المسلمين، والتصدي لمواجهة العدوان الصليبي.⁶

وبعد حوالي عشر سنوات، قفل إلى المغرب وعرج في قفوله على العواصم العلمية والسياسية، فمر بالإسكندرية ثم طرابلس فالمهدية وتونس وقسنطينة، ثم بجاية، عاصمة بني حماد آنذاك، واستقر مدة بقرية قريبة

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 465.

² المراكشي عبد الواحد، مصدر سابق، ص 245.

³ النجار عبد المجيد، مرجع سابق، ص 37-38؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 683.

⁴ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 118.

⁵ المليي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 300.

⁶ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 118.

منها تدعى ملالة، وهنالك جمعه القدر بعبد المؤمن بن علي الكومي -الذي سيصبح خليفة الموحدين- فأعجب
بذكائه، وأعجب عبد المؤمن بعلمه فصحبه وغدا من أشهر رفاقه. ثم اتجه مع صحبه السبعة¹ إلى متيجة وجبل
الونشريس، ثم تلمسان وفاس، ومراكش عاصمة دولة المرابطين وبلغ هرغة مسقط رأسه سنة 514هـ.²

وحيثما حل درّس العلم وأمر بالمعروف وغير المنكر بيده. معرضا نفسه تارة لغضب الناس، وللخطر،
وأخرى للطرد، ولكنه كان يحسن الخلاص، وبهت العلماء من فصاحته ودهش الأمراء من جرأته ومال العامة
لديانتته، فما غادر مدينة إلا وترك بها سمعة واسعة وأنصارا عديدين.³

ولم يجد ابن تومرت سبيلا للقيام بمهمة الإصلاح الديني، من دون أن يعرض نفسه لأذى، إلا في السوس
الأقصى، وسط قومه المصامدة. فانتقل إلى قرية تينمل شمال السوس الأقصى، وجعلها مقرا لدعوته لحصانة
موقعها. وهناك صرح بدعوته، وبايعه الناس على الطاعة، ونصرة نظرية التوحيد وفق آراء المعتزلة، ومحاربة المرابطين،
الذين سماهم المجسمين. وادعى أنه المهدي المنتظر، الذي يبعثه الله لنشر العدل في الأرض بعد أن ملئت جورا،
وادعى أيضا العصمة، وانه من نسل علي بن أبي طالب، وأن اسمه محمد بن عبد الله. وبعد أن تمت البيعة سنة
515هـ/1121م بتينمل، تحت شجرة خروب، وكان أول من بايعه عبد المؤمن بن علي، ثم سائر أصحابه،
وسمى أصحابه بالموحدين، لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام،⁴ صرف ابن تومرت جهوده لتنظيم
حركته سياسيا وعسكريا. فرتب أتباعه حسب الدور الذي قاموا به فيها، وحسب منزلتهم الاجتماعية، وصنفهم
إلى طبقات، أعلاها العشرة، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته، فسماهم الجماعة، وأولهم عبد
المؤمن بن علي، يليها الخمسين، وهم رؤساء القبائل، وقد كانوا يمثلون قبائل مختلفة من البربر، ثم أهل السبعين،
ثم غيرهم من الفئات، وأسند إلى كل فئة ما يناسبها من الاختصاصات.⁵

¹ البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 560هـ))، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،
1971. ص 12، 17، 19.

² بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 118.

³ المليبي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 301.

⁴ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 692؛ نجار ليلي أحمد، مرجع سابق، ص 37.

⁵ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 119.

تمكن ابن تومرت في طريق سفره إلى المشرق وفي إقامته الطويلة به من الاطلاع عن كثب على أنظمة سياسية مختلفة، وكان له لقاء مع العديد من الأمراء والولاة وخاصة في طريق عودته إلى المغرب، وقد أكسبه ذلك معرفة واسعة بالواقع السياسي للمسلمين، وما كان يتصف به هذا الواقع في كثير من الأحيان من مظاهر سلبية تتضح بالخصوص في انقسام المسلمين إلى دول شتى كثيرا ما ينشأ بينها الصراع الذي يذهب بأرواح العديد من المسلمين، كما تتضح فيما كان يمارسه بعض الحكام من القهر والتسلط على الأمة، وما كانوا ينتهجونه من الإثراء والإتراف على حساب الفقراء والمستضعفين.¹

غير أن ما شاهده أثناء عودته من إعراض الأمراء المرابطين وعمالمهم وفقهاء دولتهم، وتقاعدهم عن إصلاح المجتمع، وفسو الجهل والبدع في البلاد، قد جعله يضيف إلى المهمة الأخلاقية، التي أقدم عليها، جوانب اعتقادية وتشريعية وسياسية. واشتدت رغبته في تحقيق الوحدة الإسلامية بعد عودته من رحلته العلمية، فقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،² غير أنه لم يصرح في أول الأمر بالجانب السياسي من دعوته، وإنما اقتصر على الإصلاح الأخلاقي وتعليم الناس العقيدة الإسلامية الصحيحة.³ ولا شك في أن محمد بن تومرت كان رجلا غير عادي الذكاء، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية، وكان العلم عنده نقطة بداية وطريقا يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية، وقد وضع كل ما حصله من العلم في خدمة هذه الغاية. ولا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته، لأنه كان حصورا لا يأتي النساء، ولم يتخذ لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة، كما كان متقشفا لا يتمسك بأي مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان.⁴

وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوي من المصامدة، ثم غزا الموحدون تسع غزوات، ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل الموالية للمرابطين، وقد انتصر الموحدون في معظمها. ومنذ سنة 524هـ/1129م، أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين، ففي هذه السنة جهز المهدي بن تومرت جيشا ضخما من الموحدين، ووجهه إلى مراكش عاصمة المرابطين، وقال لهم: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إمارة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع،

¹ النجار عبد المجيد، مرجع سابق، ص 106.

² نجار ليلي أحمد، مرجع سابق، ص 36.

³ بلحاج معروف، مرجع سابق، ص 119.

⁴ مؤنس حسين، معالم، ص 204.

والإقرار بالإمام المهدي المعصوم؛ فإن أجاوبكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وغن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم. وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي، وقال : أنتم المؤمنون، وهذا أميركم".¹ فاستحق عبد المؤمن منذ ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين. واشتبك الجيشان في معركة ضارية، انتهت بهزيمة الموحدين، وقتل منهم عدد كبير، وكان فيهم الكثير من أهل العشرة. ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن، فلما وصل الخبر إلى ابن تومرت سأل : "هل عبد المؤمن في الحياة؟ قالت نعم، قال الحمد لله رب العالمين، قد بقي أمركم".² وتعرف هذه المعركة في التاريخ بموقعة البحيرة. وبعد أربعة أشهر من هذه الواقعة، أحس ابن تومرت بالمرض، فدخل داره ولم يخرج منها إلا إلى قبره، في المسجد الملاصق لداره، حيث دفن به سرا في رمضان 524هـ/أوت 1130م، وأخفى أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات،³ قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين، ثم أعلنت وفاة ابن تومرت رسميا في سنة 527هـ، فبويع لعبد المؤمن في هذا التاريخ.⁴

ويعتقد بعض الباحثين أن محمد بن تومرت قد ارتكب كثيرا من الآثام ليصل إلى النتيجة التي وصل إليه في ذلك الوقت القصير نسبيا، فقد كان لا يبالي كثيرا أن يكذب ويزيف الأحاديث النبوية ويخدع الناس عن قصد، وكان قليل الاكتراث للدماء فعرض الكثيرين للقتل دون مبرر، ولم يأسف بعد ذلك على موتهم، وكان يستغل ثقة العوام فيه وظنهم أنه من أولياء الله أو إمام معصوم كما قال، فكلفهم تضحيات كثيرة دون أن تعود عليهم من ذلك أي فائدة.⁵ ويعتبر البعض أن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت، أنه ادعى المهديّة، والعصمة، موافقته للمعتزلة في كثير من آرائهم، وتأويل بعض صفات الله سبحانه وتعالى، وقال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، الأمر الذي أدى إلى القضاء

¹ المراكشي عبد الواحد، مصدر سابق، ص 260.

² البيهقي، مصدر سابق، ص 40.

³ ابن القطان المراكشي (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي (ت 628هـ))، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، حققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. ص 170.

⁴ البيهقي، مصدر سابق، ص 43؛ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 86؛ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 695.

⁵ مؤنس حسين، معالم، ص 204.

عليها وهي دولة مجاهدة في عنفوان كفاحها ضد أعداء الإسلام.¹ ومهما كانت الآراء التي قيلت فيه، فإنه قد نجح في تجميع المصامدة والانتفاع بقوتهم لإنشاء دولة مصمودية،² كما عمل عبد الله بن ياسين على تأسيس دولة مرابطية من قبائل صنهاجة الصحراء، وأن دعوته قد أثمرت ثورة سياسية، وفكرية، نتج عنها قيام الدولة الموحدية التي عمرت قرنا ونصفا من الزمان، وقد بلغت من سعة الرقعة ومن الازدهار والقوة والسطوة مبلغا عظيما جعلها واحدة من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي.³

وما يلفت الانتباه في تاريخ محمد بن تومرت، أنه منذ لقي عبد المؤمن بن علي الكومي وضمه إلى زمرة تلاميذه وأتباعه جعله على رأس أولئك الأتباع واستخلصه لنفسه ورشحه لخلافته، ولذلك فمن الطبيعي أن يبايعه أكابر أصحابه "في الحين بيعة السر"،⁴ وتمت البيعة العامة سنة 527هـ/1132م. وهو ينتسب إلى قبيلة كومية، وهي ليست من قبائل المصامدة الكبرى، وليس لها شأن بل هي فرع زناتي في الغالب كان يسكن غرب تلمسان، وقد ولد في قرية هناك تسمى تاجرا، على بعد ثلاثة أميال من مرسى هنين. ولا يعد عبد المؤمن من منشئي الدول، ولا كانت له المواهب اللازمة لذلك، وهو مدين في كل شيء لصاحبه ابن تومرت. فهو الذي أعده للرياسة، وعلمه، ودرسه، وأخذ أتباعه بطاعته مما مهد له الأمر. وفضله يتجلى في أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب، فعرف كيف ينهض بعبء الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الأمام.⁵

كانت توليته بداية عهد جديد لتوطيد أركان هذه الدولة الفتية. وأصبحت مهمته صعبة عن ذي قبل إذ تعين عليه القضاء النهائي على دولة المرابطين، ثم ضم المغربين الأوسط والأدنى، وبانضمام القبائل حوله واصل كفاحه ضد أعدائه. فمن أهم ما قام به من فتوحات في سنة 539هـ/1144م استيلائه على تلمسان من أيدي المرابطين عقب موت تاشفين بن علي، ثم تلى ذلك دخول الموحديين إلى وهران. وفي سنة 540هـ/1145م، استولى عبد المؤمن بن علي على فاس بعد حصار طويل وهدم سورها، فغدا الطريق ممهدا لدخوله مراكش عاصمة المرابطين، فتم ذلك في سنة 541هـ/1146م، وقُتِل إسحاق بن علي بن تاشفين وجماعة من أمراء المرابطين،

¹ الصلابي علي محمد، دولة الموحدين، ص 37-70.

² مؤنس حسين، معالم، ص 210.

³ النجار عبد المجيد، مرجع سابق، ص 382.

⁴ ابن القطان المراكشي، مصدر سابق، ص 170.

⁵ المراكشي عبد الواحد، مصدر سابق، ص 262؛ المليي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 310؛ مؤنس حسين، معالم، ص 212.

وبذلك انتهت الدولة المرابطية. ثم تطلع إلى المغربين الأدنى والأوسط، فاستولى على بجاية سنة 547هـ/1152م من حاكمها يحيى بن العزيز بالله الصنهاجي.¹

قرر عبد المؤمن وضع حد لوجود النصارى في المهديّة (النورمان)، فجهز حملته القوية لطردهم في سنة 556هـ/1158م، وقاد جنوده برا وحرص على كتمان وجهة سيره، وتابعه الأسطول الموحدى بحرا فاستولى على تونس عنوة، ثم حاصر المهديّة حتى تمكن من دخولها بعد تفاوضه مع الحامية النصرانية على الجلاء عن المدينة سنة 555هـ/1160م، واثناء ذلك تم له الاستيلاء على قابس، وقفصه، وطبرقه، وجبل زغوان، وشقنبارية، والأريس، وطرابلس، وبلاد الجريد كلها، وغدت افريقية بذلك جزءاً من دولته.² وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى، والمغرب الأدنى، وجزء كبير من المغرب الأوسط.

ثم التفت إلى العرب الهلالية، حيث كان موقفها متذبذباً من الدولة الموحدية ما بين الولاء والطاعة حيناً، وما بين العصيان والاشتراك في الثورات ضدها حيناً آخر. ولما شعرت هذه القبائل بقوة عبد المؤمن بن علي، اتحدت لإخراجه من البلاد، فالتقى بهم جيشه في موقعة سطيف سنة 548هـ/1152م، حيث هزمهم هزيمة شديدة، وقتل العديد منهم ونقل بعضهم إلى فاس ومكناس، وسلا، بينما أنزل نساءهم في مراكش وأجرى عليهم النفقات.³

ثم وجه عبد المؤمن نظره بعد ذلك إلى الأندلس، فقد كان أهلها قد انتهزوا فرصة ضعف المرابطين، وتوالي الهزائم عليهم في المغرب على أيدي الموحدين، وأعلنوا الثورات في كل مكان بالأندلس، وأعلنوا أنفسهم حكاماً مستبدين في نواحيهم، وعاد الأندلس مرة أخرى موزعاً بين أمراء محليين. وقد وجه الموحدون همهم ناحية غرب الأندلس لأول نزولهم الأندلس سنة 541هـ/1146م، وكان غرب الأندلس موضع اهتمامهم طوال مدة حكمهم فيه كلها. فقد كانت اشبيلية هي عاصمتهم هناك. وفي غرب الأندلس قاموا بمعاركهم الكبرى، فسقطت في أيديهم قرطبة وعدة مدن أخرى سنة 545هـ/1150م، ولم يتسع أمامهم الوقت للاهتمام بشرق الأندلس

¹ نجار ليلي أحمد، مرجع سابق، ص 38.

² المرجع السابق، ص 39.

³ نجار ليلي أحمد، مرجع سابق، ص 41.

ووسطه، ولكن أعمالهم العسكرية الباهرة في غرب الأندلس ثبتت جبهة الإسلام فيما بقي لهم في شبه الجزيرة كله نحو قرن من الزمان.¹

تسمى فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين بعصر الطوائف الثاني. ويبدأ من سنة 539هـ/1144م، وهي السنة التي قتل فيها تاشفين بن علي ثالث أمراء الموحدين عند وهران وتنتهي سنة 552هـ/1157م، وهي السنة التي تمكن فيها الموحدون من استعادة المرية بعد سقوطها في يد النصارى، وباستعادة المرية توحد ما بقي من الأندلس مرة أخرى تحت راية الموحدين. وفي سنة 556هـ/1161م، عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس فاستقبل استقبالاً مشهوداً.

وانشغل عبد المؤمن في أواخر أيامه بالقضاء على حركات التمرد التي اندلعت في عدة مناطق ضد دولته، منها القبائل الهلالية في تونس، كما حاول النورمان استعادة المهديّة، ثم عبر إلى الأندلس للقضاء على حركة تلمذ ظهرت هناك. وبعد أن انتصر عليها، عاد إلى المغرب، وعندما وصل إلى سلا نزل به المرض، ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحبه في جمادى الثاني سنة 558هـ/جوان 1163م.²

بعد وفاة عبد المؤمن بن علي خلفه محمد أكبر أبناؤه، وبايعه الناس، فتولى الخلافة خمسة وأربعين يوماً، ثم عزل عنها "الأمر لا تصلح معها الخلافة، من إدمان شرب الخمر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش، وجبن النفس؛ ويقال مع هذا كان به ضرب من الجذام".³ وأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أخيه يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ/1163-1184م)، وكان أبو يعقوب هذا قد تأثر برقة الحياة في الأندلس وحضارتها منذ أن كان والياً على اشبيلية من قبل أبيه، فزال عنه جفوة البربر، وكان قد درس على كثير من علماء الأندلس في القرآن واللغة والنحو، وكان محباً للجهاد في سبيل الله. وقد اعترضته منذ توليته أمور الدولة عدة صعاب واجهها في شجاعة وعزم، واستطاع أن يتغلب عليها، ففي المغرب قامت فتنان. وجاز إلى الأندلس مرتين، الأولى في سنة 566هـ للنظر في ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد، ومحاربة القشتاليين، والأرغونيين وبقايا العناصر التي ما زالت موالية للمرابطين في الأندلس، والثانية في سنة 579هـ لمحاربة البرتغاليين. وأصيب هذه المرة

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 217.

² ابن القطان المراكشي، مصدر سابق، ص 205؛ المراكشي عبد الواحد، مصدر سابق، ص 306؛ مؤنس حسين، معالم، ص 219.

³ المراكشي عبد الواحد، مصدر سابق، ص 306.

بسهم مسموم أثناء حصاره لمدينة شنترين، فمات بعد ليلتين من هذه المعركة في رجب 1184/580م، بعد أن قضى في الحكم مدة اثنتين وعشرين سنة.¹

وتولى مقاليد الحكم خلفا له ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (580-595هـ/1184-1163م)، ولقب بالمنصور، وقد بلغت الدولة الموحدية في عهده الذي استمر ما يقرب من خمسة عشر عاما، أوج ازدهارها وتقدمها. وقد توزعت جهود المنصور الموحدية العسكرية في أكثر من ميدان.² غير أن أخطر ثورة واجهها الموحدون في عهد هذا الأمير هي ثورة بني غانية، التي نتج عنها انفصال افريقية ثم المغرب الأوسط عن سلطة دولة الموحدين.

وبنو غانية من قبيلة مسوفة الصنهاجية، وهم ينتسبون إلى مؤسس بيتهم محمد المسوفي الذي ينسب إلى أمه وكانت من غانة، فهي غانية، وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين؛ لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيرا، فينسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزا لهم بعضهم عن بعض في البيت الواحد.³ وكانوا يمتون بصلة القرابة إلى بني تاشفين أمراء المرابطين، وفي عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دانية، فامتلكوا جزر البليار: ميورقة، ومنورقة، ويابسة، واستقلوا بحكم هذه الجزر، وفتحوا باهم لمن وفد إليهم من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس. واستغلوا فرصة انشغال الموحدين بضبط أمور الدولة، وتعيين الأمير الجديد، فبادروا بإعلان رفضهم لطاعة الموحدين، بل ومحاربتهم، وقاموا بحركة ضدهم في بلاد افريقية. وربما كان الهدف من هذه الثورة إحياء دولة المرابطين وإعادة الدعاء للخلافة العباسية على المنابر. وفي سنة 581هـ، استغل علي بن غانية وجود يعقوب المنصور بالأندلس، وغياب حامية مدينة بجاية التي خرجت مع الوالي الموحدية. وهجم بأسطوله "وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها".⁴ وهكذا بدأت هذه المشكلة في أول الأمر صغيرة في حجمها وأهميتها، ولكن عجز الإدارة الموحدية عن معالجتها بالصورة الناجعة جعل منها مشكلة ضخمة، استنزفت من دماء الدولة وجنده جانبا كبيرا، وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة كلها. وربما كان أحسن ما يعمله الموحدون في هذا الظرف، وهم أمام عدو خطر هو دول اسبانيا النصرانية، ان يتركوا جانبا موضوع الجزائر الشرقية وبني غانية فيها، وألا يشغلوا

¹ سالم السيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 715.

² حسن حسن علي، مرجع سابق، ص 47.

³ مؤنس حسين، معالم، ص 224.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 6، ق 1، ج 11، ص 392.

أنفسهم كثيرا بأمر افريقية حتى يفرغوا من العدو النصراني. ولكن الذي حدث هو أنهم لم يتخذوا هذه السياسة، بل اهتموا أشد الاهتمام ببني غانية، ومضوا يرسلون الحملات تلو الحملات على افريقية، ففقدوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين في حرب عقيمة بلا نهاية. لأن بني غانية وأحلافهم من بني هلال جعلوا الصحراء ملجأهم، فكلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء، ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد، واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة استنزفت جانبا كبيرا من قوة الدولة وثروتها. ورغم أن يعقوب المنصور تصدى لهم في حزم وأنزل بهم هزيمة قاصمة سنة 583هـ/1187م، غير أنه عجز عن القضاء على شوكتهم إلى الأبد، ولم يجتث بذور الفتنة نهائيا. ولذلك ظلت هذه الثورة شجا في جنب الدولة الموحدية، أو شوكة في حلقها، طيلة عهد المنصور الموحي وابنه الناصر من بعده.¹ وقد دامت ثورة بني غانية نصف قرن، ولم يجن الوطن منها غير الخراب، فقد حُرِّب الكثير من قصور الصحراء، وكثير من المدن، وانشغل الموحدون عن الجهاد في الأندلس، وضعفت دولة بني عبد المؤمن، وظهر الحفصيون.²

أما الميدان الأخير الذي برزت فيه جهود المنصور الموحي، فهو ميدان الأندلس الذي أولاه المنصور اهتمامه وعنايته، وتوج هذا الاهتمام بانتصاره العظيم في معركة الأرك، تلك المعركة التي أعادت أمجاد الزلاقة، وكانت بين جيوش المسلمين بقيادة بطل الأرك المنصور الموحي وجنود الفرنجة بقيادة الفونسو الثامن (الأذفونش) ملك قشتالة في عام 591هـ/1194م. وقد أفاضت المصادر في وصف هذه المعركة التي وطدت من سلطة الموحدين بالأندلس، وأوقفت زحف المسيحيين وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم في الشمال الإفريقي حتى إذا حلت سنة 595هـ/1198م، أصيب المنصور الموحي بوعكة أدت إلى وفاته بعد فترة جهاد استمرت خمسة عشر عاما منذ توليه مقاليد الدولة.³

وتولى خلفا له ابنه أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالناصر لدين الله (595-610هـ/1198-1213م)، وقد حدثت في عهده تطورات سياسية وعسكرية، انتقلت بالدولة الموحدية من مرحلة القوة والسيادة التي تمتعت بهما في عهد عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وحفيده المنصور،

¹ مؤنس حسين، معالم، ص 224-226.

² المليي مبارك بن محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 321.

³ حسن حسن علي، مرجع سابق، ص 49.

إلى مرحلة التمهيد للاختيار العام للدولة ثم سقوطها. غير أنه حقق في أوائل عهده وبعد معارك عنيفة في الجبهة الإفريقية عدة انتصارات على ثورة بني غانية، إذ توجه إلى إفريقية في سنة 598هـ/1209م، وعاد في سنة 604هـ/1207م، بعد أن حقق نجاحا في الميدان الإفريقي. ولعبت جبهة الأندلس دورا كبيرا في ضعف الدولة الموحدية وذلك حين فجع الموحدون في بهزيمة قاسية في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م، راح ضحيتها الكثير من جند الموحدون، وأفقدت الموحدون هيبتهم بالميدان الأندلسي. وامتدت آثار هزيمة العقاب على مستقبل الأندلس السياسي، حيث دخلت منذ هذه المعركة في دور الضعف الذي عجل بسقوطها بعد ذلك في أيدي الفرنجة. وانعكست هزيمة العقاب على المستقبل السياسي للمغرب الأقصى، إذ أصيب الناصر بالمرض، وتوفي سنة 610هـ/1213م. وبوفاته انتهت فترة القوة والازدهار من عمر الدولة الموحدية، وسرى الضعف في أرجائها. حيث تقلص نفوذها في الأندلس وإفريقية. وشهدت الدولة بعد ذلك صراعات بين أبناء عبد المؤمن على السلطة، وبدأت الحروب الأهلية والمنافسات التي انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مرين الزناتيون بدخول مراكش في سنة 668هـ/1269م، والقضاء على أبي يعقوب يوسف بن محمد الناصر وهو آخر الموحدون. وبذلك سقطت الدولة الموحدية، ودرست آثارها واستولى الخراب والدمار على معظم ديارها.

ورثة الموحدون في بلاد المغرب

بعد انهيار دولة الموحدون التي امتدت رقعتها من طرابلس إلى المحيط، ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف بلاد السودان، إضافة إلى الأندلس، شهد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري انقسامًا سياسيًا جديدًا إلى ثلاث دول بربرية مستقلة. فقد استغل بنو حفص المصامدة، ولاة إفريقية في عصر الموحدون فرصة احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها في أيام أبي زكريا الحفصي في سنة 675هـ. بينما اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم. فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى، بعد أن تمكن أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من الاستيلاء على مراكش عاصمة الموحدون في سنة 668هـ/1269م. بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، حيث كان ذلك في سنة 624هـ/1227م، على يد يغمراسن بن زيان عامل الموحدون على تلمسان. وتم انفصال المغربين الأدنى والأوسط عن دولة الموحدون دون جهد كبير بذلوه في هذا السبيل، وعلى العكس من ذلك بالنسبة لبني مرين الذين دفعوا ثمنًا غاليا لارتقائهم إلى السلطان.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

1. ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م))، الحلة السبراء، حققه حسين مؤنس، دار المعارف، ط 2، القاهرة، 1985.
2. ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ))، الكامل في التاريخ، ط 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983.
3. الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 330هـ))، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.
4. البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429هـ))، الفرق بين الفرق، اعتنى بها وعلق عليها، الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط 4، بيروت، 2008.
5. البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ))، المسالك والممالك، حققه جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
6. البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).
7. البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 271هـ))، فتوح البلدان، حققه عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987.
8. البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 560هـ))، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
9. ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت، 1987.
10. ابن حزم الظاهري الأندلسي (456هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، (د م)، (د ت).
11. الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ))، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008.
12. ابن خردادبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 280هـ))، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889.
13. ابن الخطيب (محمد لسان الدين (ت 713هـ))، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، 1329هـ.
14. ابن خلدون (عبد الرحمن (ت 808هـ))، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983.
15. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ))، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د ت).

16. الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، (د. م.)، 1994.
17. ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
18. أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر (ت 471هـ))، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حققه إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1982.
19. الشهرستاني (أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد)، الملل والنحل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.
20. ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
21. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د ت).
22. ابن عذارى المراكشي (ت 695 هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط 2، بيروت، 1980.
23. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، كتاب طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني بيروت، (د ت).
24. ابن الفقيه (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت 340 هـ))، كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996.
25. ابن قتيبة الدينوري (محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ))، الإمامة والسياسة، تحقيق الأستاذ علي شيري، دار الأضواء، بيروت، 1990.
26. ابن القطان المراكشي (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي (ت 628 هـ))، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، حققه محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
27. ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774 هـ))، البداية والنهاية، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007.
28. المالكي، (أبو بكر عبد الله بن محمد (ت 474 هـ))، رياض النفوس، حققه بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1994.
29. الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ))، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989.
30. المراكشي عبد الواحد (ت 647 هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963.
31. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت 346 هـ))، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، ط 5، بيروت، 1983.
32. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1906.

33. المقريري (تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ))، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996.
34. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ))، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
35. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ))، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).

ثانيا المراجع العربية والمعربة :

1. إدريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
2. إسماعيل محمود، الأدراسة (172-375هـ) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991.
3. إسماعيل محمود، الأغالبة (184-296هـ)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1972.
4. أمين أحمد، ضحى الإسلام، دار الكتاب اللبناني، ط 10، بيروت، (د ت).
5. أمين أحمد، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط 11، القاهرة، 1975.
6. الباروني سليمان باشا، أئمة وملوك الإباضية، مراجعة محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، 2005.
7. بلحاج معروف وبودواية مبخوت، كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، رئيس المشروع عبد الحميد حاجيات، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، (د ت).
8. تامر عارف، تاريخ الإسماعيلية الدعوة والعقيدة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1991.
9. الثعالبي عبد العزيز، تاريخ شمال افريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1990.
10. جمال الدين عبد الله محمد، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
11. الجيلالي عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، ط 2، بيروت، 1965.
12. حارث محمد الهادي، التاريخ المغربي القديم، السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د م)، (د ت).
13. الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم للنشر والتوزيع، ط 3، الكويت، 1987.
14. حسن حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي بمصر، 1980.

15. الدشراوي فرحات، الخلافة الفاطمية بالمغرب، (296-365هـ/909-975م)، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. 1994.
16. دندش عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا (430-515هـ/1038-1121م)، دار الغرب الإسلامي، 1988.
17. سالم السيد عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د ت).
18. السلاوي الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (د ن)، (د م)، (د ت).
19. الشعراوي احمد إبراهيم، دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015.
20. شنيقي محمد البشير، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146-ق.م/40م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985.
21. صفر احمد، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959.
22. الصلابي علي محمد، الدولة الفاطمية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2006.
23. الصلابي علي محمد، دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، 1998.
24. الصلابي علي محمد، فقه التمكنين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
25. الطمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
26. طه عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.
27. عاشور سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
28. العبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د ت).
29. عبد الحميد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995.
30. عبد الرزاق محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط 2، الدار البيضاء، 1985.
31. بن عميرة محمد، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
32. عويس عبد الحليم، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الإسلامي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط 2، القاهرة، 1991.
33. عيبش يوسف، الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2009.
34. غانم محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1979.
35. لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
36. لقبال موسى، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981.

37. مارسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.
38. مجاني بوبة، أثر العرب اليمينية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2009.
39. مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت.).
40. مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، (د ن)، (د م)، 2004.
41. الميلبي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم محمد الميلبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ت).
42. النجار عبد المجيد، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
43. نصر الله سعدون عباس، دولة الأدارسة في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1987.
44. نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

1. Diehl Charles, L'Afrique byzantine histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Ernest Leroux éditeur, Paris, 1896.
2. Gautier E. F., L'Islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Maghreb, Payot, Paris, 1927.

رابعا : المقالات

1. Lewicki Tadeusz, L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle, in : Cahiers d'études africaines, vol. 2, n°8, 1962. pp. 513-535.

خامسا : الرسائل والمذكرات الجامعية

1. نجار ليلي أحمد، المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدى دراسة تاريخية وحضارية (580-595هـ/1184-1198م)، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1989.
2. نوح فوزية محمد عبد الحميد، البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف الدكتور أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984-1985.

سادسا : القواميس والموسوعات

1. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ))، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د ت).
2. Canard M., **Fatimids, Economic activity during the Fatimid period**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1991.
3. Rabbat Nasser, **Ribat**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1995.
4. Schacht J., **Aghlabids, religious life**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden. 1986.